فصل

فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد: لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضا أمره إلى الله، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام:« من فتح له باب خير لينتهزه، فإنه لايعلم متى يغلق دونه» وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ماعدا النساء والصبيان، ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي.

وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما رأى أعداء الله مانزل بهم من الأمر الذي لايندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وماجرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ماصاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به أخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل

زمان الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهـذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى.

قلت: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في موضع غير هذا والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والحرف، وذلك أن الناس لما بلغهم مامن الله به على يده من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلا عظيما، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر، وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير،وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا.

قلت: كذا قال، وسيأتي في كلام العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: ان الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصليت في يوم الجمعة الآتي.

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سلم بنفسه، وإلا أخذ أسيرا، وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفـا، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي.

obeikandl.com

فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصرا مجموعاً، وقد بسطه العماد فقال: رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا، وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا، والاسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نعمى ليحمل عنها بوسى، ويهدي بشرى ليذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، واطلاع زهر المصابيح في سمائها، وإعادة الايمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه،وإقصاء أعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، واسكات الناقوس منه بانطاق الأذان، وكف كف الكفرعنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس، وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبا واطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الاسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ماعاشت، وكان به من مقدّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيئان بارزان، والبطرك الأعظم وهو الثاني العظيم الشان، والذين أعظمتهم حياطة حطين به من الفرسان الداوية والاسبتاربة و البارونية من ذوي الكفر والشنآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت حميتهم وأبت الضيم أبيتهم، وحارت غيرتهم، وغارت حيرتهم، وتبلدوا وتلدّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوّبوا وصعدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم، فكانت كل دار منها شركا للمشرك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وايس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج، وقالوا: هاهنا نطرح الرؤوس، ونسلو النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح، فهذه

الأماكن فيها قيامتنا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنا، وتصح ندامتنا، وتسيح علامتنا، وتسح غمامتنا وبها غرامنا، وعليها غرامتنا، وباكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإذا تخلينا عنها لزمت لامتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمحق والمذهب والمطلع والمقطع والمربى والمربع، والمرخم والمخرّم، والمحلل والمحرّم، والصور والاشكال، والانظار والأمثال،والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجساد والأرواح، وفيها صور الحواريين في حوارهم، والأحبار في أخبارهم والراهبين في صوامعهم، والاقساء في مجامعهم، والسحرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السيدة والسيد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت والتلميذ والمعلم، والمهد والصبي المتكلم،وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار والنواقيس والنواميس، قالوا: وفيها صلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونزل النور، وزال الديجور، وازدوجت الطبيعة بالاقنوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبدهم من هذه ا لضلالات ماضلوا فيه بالشبه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت،وعنها ندافع، وعليها نقارع، ومالنا لانقاتل، وكيف لاننازع ولاننازل،ولأي معنى نتركهم حتى يأخذوا وندعهم حتى يستخلصوا مااستخلصنا منهم ويستنقذوا، وتأهبوا وتناهوا، ومانتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، وستروا بظلمات الستائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينهم، وسرحت سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلتت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضهم قسوسهم، وحرضتهم رؤوسهم، وحركتهم نفوسهم، وجاءتهم بنجوى السوء جواسيسهم، ونصبوا على كل نيق منجنيقا، وحفروا في الخندق

حفراً عميقا، وشادوا في كل جانب ركنا وثيقـا، وفرقوا على كل برج فريقا، وجعلوا إلى كـل طارق بـالردى للـرّد طريقـا، وأعادوا كـل نهج واسع بما وعروه وعورّوه بـه مضيقا، وتحمل كل منهـم مالم يكن له مـن قبل مطيقا، وخـرج جماعة منهـم على سبيل اليـزك فـأدلجوا ليلا، واعترضـوا عدّة مـن أصحـابنا غـارة، على طريـق السلامـة مـاره، وكان قـد شذ مـن المقدمـة المنصورة أمير تقـدم، وماتحرز، ولاتحزم، ومـاظن أن قـدامه مـن له جـراءة الإقـدام، ومن يعتقـد أن ربـح كفـره خسارة الاسـلام، وهـوالأمير جمال الدين شروين حسـن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضـع يعرف بالقبيبات، فاستشهـد رحمه الله، ولما بلغ السلطـان خبره ساءه وغمه ثـم أقبل بـاقبال سلطـانه وأبطـال شجعـانـه، واقيال أولاده، وأخـوانـه، وأشبـال مماليكـه وغلمانه، وكرام أمـرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصـى وطريقة الأدنـى، وفريقـه الأسنـى، ويذكـر مـايفتح الله عليـه بحسـن فتحه مـن الحسنـى، وقال إن أسعـدنا الله على إخـراج أعدائه مـن بيته المقـدس فما أسعدنا، وأي يـد له عندنا إذا أيـدنا، وإنه مكث في أيـدي الكفر احدى وتسعين سنة، ولم يتقبل الله فيه من عابـد حسنه، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القـرون عنه متخليه، وخلت الفرنج بـه متوليه، فما ادخر الله فضيلة فتحـه إلا لآل إيوب ليجمع الله لهم بـالقبول القلـوب، كيف لايهتـم بفتح البيـت الأقوى، والمسجـد الأقصـى المؤسس على ا لتقـوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأوليـاء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض، وملائكة السماء، ومنـه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه مـن أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي صينـت جدة ابهاجها من الانهاج، ومنهاج المعراج، لها القبة الشماء التي هي على رأسها كـالتاج، وفيه ومض البارق، ومضـى البراق، وأضـاءت ليلـة الاسراء بحلـول السراج المنير في الآفـاق، ومن أبـوابه بـاب الرحمة، الذي يستـوجب داخله إلى الجنـة بالـدخول إلى الخلـود، وفيـه كـرسي سليمان ومحراب دواد، وفيه عين سلـوان التـي تمثـل لـواردهـا مـن الكـوثـر الحوض المورود، وهـو أوّل القبلتين،وثـاني البيتين،

وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سوره، فقال عز من قائل:(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)[٤٧] وله فضائل ومناقب لاتحصى، ومنه كان الاسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الانبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء، وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال فيه: (كلما دخل عليها زكريا المحراب)[٤٨] ولنهاره التعبد، ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه « سبحان»، وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأسناه وأكرمه، وأيمن بركاته، وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه، وأبهج مزاينه، وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله:(الذي باركنا حوله) وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ماوثق على استعادة آلائه مواثيقه وألاياه، وأقسم لايبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقا بكمال النصره.

فصل

في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره

قال العماد: نـزل السلطان على غربي القـدس يوم الأحد خـامس عشر رجب، وكان في القدس حينئذ من الفرنـج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسـائف ونابـل، فاستهدفـوا للسهام، واستـوقفوا للحمام، وقـالوا كل واحـد منا بعشريـن، وكل عشرة بمئتين، ودون القيامـة تقوم القيـامة، وبحب سـلامتها تقلى السـلامة، وأقـام السلطان خمسـة أيام يـدور حول البلـد، ويقسم على حصـاره أهل الجلـد، وأبصر في شمـاليـه أرضاً رضيهـا للحصار، متسعة المجـال للاسماع والابصار، وممكنة للدنـو منه للنقب إن صار مـن حيز الانصـار، فانتقل إلى المنـزل الشمالي يوم الجمعـة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبـت إلاّ على منجنيقات قد نصبت بلا نصب، فدام القتال والنزال، وفرسـانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمـام جموعهـم المحسـورة المحشـورة، ويبرزون ويبـارزون،ويطـاعنـون ويحاجزون ، والمطيعـون لله عليهم يحملون، ومـن دمائهم ينهلـون ويُنهلون كما قال الله تعالى فيهم(يقاتلـون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون)(٤٩) وممن استشهد مبارزا ولم يشهـد بينه وبين الجنة حاجزا الامير عز الـدين عيسى ابن مـالك كان أبـوه صاحب قلعة جعبر، فـانه حاز لشهـادته في المحشر المفخـر وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكـوثـر، وكـان في كل يـوم يفـرس فوارس، ويلقى ببشر وجهـه وجوه المنون العوابس ، فاغتـم المسلمون من صرعته، وهـان عليهم اتـلاف المهج بعـد اتلاف مهجتـه، فركبـوا أكتاف الرهج، حتى وصلـوا إلى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفـرقوه، والتصقوا بـالسور فنقبـوه وعلقـوه وحشـوه وأحرقـوه، وصـدقـوا وعد الله في القتـال لأعـدائه وصـدقـوه ، ولما عضتهـم الحرب، وقـع السـور واتسـع النقـب، فصعب عليهم الهين وهـان لنا الصعب، وعقدوا مابينهـم مشورة، وقعدوا

مابينهم ضرورة، وقـالوا: مالنا إلاّ الإستئمان ، فقد أخـذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليؤخـذ لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم، وتدميرهم واستئصالهم ،وقال: لاآخـذ القدس إلاّ كما أخذوه من المسلمين منذ احـدى وتسعين سنة، فإنهم استبـاحوا القتل ولم يتركـوا طرفا يستـزير سنة، فـأنا أفنـي رجالهم قتـلا، وأحوي نسـاءهم سبيـا، فبرز ابن بـارزان ليـأمن مـن السلطـان بموثقـه ، وطلـب الأمان لقـومـه، وتمنع السلطـان وتسامى في سومـه، وقال: لاأمن لكم ولاأمان، وماهوانـا إلاّ أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونـوسعكم قتلاً وأسرا، ونسفك مـن الرجال الدماء، ونسلـط على الذرية والنساء السباء، وأبى في تـأمينهم إلاّ الإباء ، فتعرضـوا للتضرع وخوّفوه عـاقبة التسرع، وقالـوا: إذا أيسنا من أمـانكم وخفنا من سلطانكـم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنـه لانجاة ولانجاح، ولاصلح ولا صلاح، ولاسلـم ولاسلامه، ولا نعمة ولاكرامة، فـانا نستقتل فنقاتـل قتال الـدم والندم، ونقـابل الـوجود بـالعدم، ونلقـي أنفسنا على النار، ولانلقـي بأيـدينا إلى التهلكة والعـار، ولايجرح منا واحـد حتى يجرح عشره، وإنا نحـرق الدور، ونخـرب القبه، ونترك عليكـم في سبينا السبـه، ونقلـع الصخرة، ونـوجدكـم عليهـا الحسره، وقبة الصخـرة نرميهـا، وعين سلـوان نعميها، والمصـانـع نخسفهـا ، والمطالـع نكسفهـا، وعنـدنا مـن المسلمين خمسة آلاف أسير مابين غنـي وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشت شملهم، وأمـا الأموال فإنا نعطبهـا ولانعطيها، وإما الذراري فـإنا نسارع إلى اعـدامها ولانستبطيهـا، فلا يحصـل لكم سبـي، ولايقبل لكـم سعـي، ولايسلم عمـر ولاعماره، ولانضار ولانضـاره، ولانساء ولاصبيـان، ولاجماد ولاحيوان، فأي فائدة لكم في هـذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الربح، ورب خيبـة جاءت من بعد رجاء النجح، ولايصلـح السوء سوى الصلح، فشاور السلطان أصحابه فقيـل له الصواب إن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفـوسهم، ونعمـم لصغار الجزية رؤوسهـم، ويدخـل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهـم، واستقرّ الحال بعد مروادات ومعـاودات ومفاوضات

وتفـويضـات وضراعـات مـن القوم وشفـاعـات، على قطيعـة تكمـل بها الغبطة، ويحصل منهـا الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأمـوالهم، وخلصوا بها رجالهم ونسـاءهم وأطفـالهم، على أنه من عجـز بعد أربعين يـوما عما لزمه أو امتنـع منه وماسلمه، ضرب عليه الرق، وثبـت في تملكه لنا الحق، وهـو: عن كـل رجـل عشرة دنانير، وعـن كـل امـرأة خمسة، وكـل صغيرة أوصغير ديناران، الـذكر والأنثى فيهما سيـان، ودخل ابن بـارزان والبطرك ومقدّمو الداوية والاسبتار في هـذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقـام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء، فمـن سلم خرج عن بيته آمنا، ولم يعد إليه ساكنا، وسلمـوا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغـم والغصب لاالوديعة، وكان فيه أكثـر من مـائة ألف انسـان من رجـال ونساء وصبيـان، فأغلقـت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهـم واستخراج مايلزمهم النواب، ووكـل بكل باب أمير ، ومقدّم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الوالجين، فمـن استخرج منه خرج، ومن لم يقـم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولـو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منـه بيت المال بأوفر حـظه، لكن تـم التفريط وعم التخليط، فكل من رشـا مشى، وتنكـب مناهج الرشد بالـرشا، فمنهم من أدلي مـن السور بـالحبال، ومنهـم من حمل مخفيـا في الرحـال، ومنهم مـن غيرت لبستـه، فخرج مخفيـا بـزي الجند، ومنهـم من وقعـت فيـه شفاعـة مطاعـة لم تقابـل بالـرد، والنقاب الأكـابر استنـابوا أصـاغر، فـأقامـوا في تقصيرهم المعاذر، وقنـوا لأنفسهم الذخائر، وادّعى مظفر الـدين كوكبري أن منهم جماعة مـن أرمن الرها، وعددهـا ألف نسمة، فجعل إليـه أمرها، وكذلـك صاحب البيرة ادّعى بها لعـدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمنـي ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القـدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهـب عدة استطلقها، وحصل لـه مرفقها، ثم تـولى الملك العادل استخـراجهم، وقـوّم على الأداء منهـاجهـم، وسهل على السلطـان لفـرط جوده الاستخـراج والإخراج، وتـوفر لعامة الناس وخاصتهـم بهجة سماحة

الابتهاج، وما فينا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعى خصيب، وكان السلطان قد رتب عدّة دواوين في كل ديوان منها عدّة من النواب المصريين،وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء، فذكر لي من لاأشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم، وتلبس أمر تلبيسهم ، فكانوا شركاء بيت المال لاأمناءه، وخانوه على ماحصل لكل من الغنى والنفع وماأضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيت المال مايقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رق إسار ينتظر انقضاء المدّة المضروبه، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة، وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة في عبادة الصليب متصلبه، وعلى مصابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدرة تحدّر القطرات من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع وأتباع، فاستعاذت بالسلطان فأعاذها، ومنّ عليها وعلى كل من معها بالافراج، وأذن في اخراج كل مالها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، واسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن كانت من سجنها قرحى، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كى، وهى ابنة الملك امارى، وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الالمام بزوجها، وكان بقيده مقيما في برج نابلس، موكلاً به ليوم وعد تسريحه، فأذن لها ، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها، وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفري وهي ابنة فليب وزوجة الابرنس الذي سفك دمه يوم حطين، وهي صاحبة الكرك والشوبك، وهي بنوّابها محوطة وبرأيها منوطه، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعدت أنها إن سمحت بحصنها سمح لها بابنها، ثم

- ٨٥٤٦ -

أعفيت وأطلقت وعصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها وأقر برؤيته عينها، وسار معها من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلمها فمانعها أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها باطلاقه إذا تسلم تلك الحصون.

opeikandl.com

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلم المسلمون المدينة يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفاتها، وأغلقت أبوابها، لحفظ ناسها في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقت الفريضة وتعذر أداؤها، وللجمعة مقدّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لاسيما محرابه مشغولا بالخنازير والخناء، مملوءا بما أحدثوا من البناء، مسكونا بمن كفر وغوى، وضل وظلم وجنى، مغمورا بالنجاسات التي حرم علينا في تطهيره منا الونا، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتم الأنجح الأنجع، وهو حفظهم وضبطهم، إلى أن يوجد شرطهم،ويؤخذ قسطهم، واتفق فتح البيت المقدس في يوم كان في مثل ليلته منه المعراج، وتم بها وضح من منهاج النصر الابتهاج، وجلس السلطان بالمخيم ظاهر القدس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء،والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الابرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأهله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مقبل، وبساطه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، قد حلت له حالة الظفر، وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون، وينشدون، والاعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي:(شرع لكم من الدين ماوصى)[٥٠] وهنئي الحجر الأسود بالصخرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحل الاسراء، ومقر سيد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الرسل والانبياء، ومقام ابراهيم، بموضع قدم المصطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل

الاسلام بشرف بنيته مستمتعين، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدّس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

وقد سبق أن العماد كان توجه إلى دمشق، والسلطان على بيروت للألم الذي ألم به، فلما سمع بنزول السلطان على القدس أبل من مرضه، وتوجه إليه، فوصل يوم السبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صبحا عند طلوع الصبح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغرّبوا بها .ويشرّقوا، وهو يقول لهم: لهذه القوس بار ولهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره، كل كتاب بمعنى بديع وعباره، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننلهم دينهمالذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(٥١).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدّل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصرالامامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الامم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ماكان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس،

وجعل عـز يومه مـاحياً ذل أمـس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعـد الجهال والضلال مـن البطرك والقس، وعبـدة الصليب، ومستقبلي الشمـس، وقد أظهـر الله على المشركين الضـالين جنـوده المؤمنين العـالمين، وقطـع دابـر القوم الظـالمين والحمد لله رب العالمين، فكـأن الله شرف هذه الامـة وقال لهم: اعزمـوا على اقتناء هذه الفضيلـة التي بها فضلكم وحقـق في حقهم امتثـال أمره في قـولـه الكريـم:(ادخلوا الارض المقـدّسـة التي كتـب الله لكم)(٥٢)وهذا الفتـح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكتـه المسوّمـة له مـن أعز الانصـار وأظهر الاعـوان، واخرج مـن بيته المقدس يوم الجمعة أهـل الأحد، وقمع من كان يقول إن الله ثـالث ثلاثة بمن يقـول: هو الله أحـد، وأعان الله بـانزال الملائكـة والروح، وأتـى بهذا النصر الممنوح، الـذي هو فتـح الفتوح، وقـد تعالى أن يحيـط به وصـف البليغ نظماً ونثراً، وعبد الله في البيـت المقدّس سراً وجهـراً، وملكت بـلاد الأردن وفلسطين غوراً ونجـداً وبراً وبحـراً، وملئت اسلامـا وكانـت قد ملئت كفراً، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرا، والحمد لله شكرا، حمدا يجددّ للاسلام كل يوم نصرا، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشرا، وأبى الخادم إلا استبـاحة أموالهم وأرواحهم، وحسـم داء اجتراحهم باجتياحهـم، وانه لابد من تطهير الأرض المقـدّسة برجس دمـائهم، وقتل رجـالهم وسبي ذراريهم ونسـائهم، ولما أيسـوا من النجـاة، وفتحوا أبـوابها المرتجة من أسبـابها المرتجاه، خوّفـوا بقتل الأسـاري المسلمين، وهم أكثـر من ثـلاثة آلاف، وأنهم يفسـدون جميع مـا في البلد مـن مال وبنـاء بهدم واحراق واتـلاف، وعرف ان جهلهم يحملهـم على كل مكـر شنيع، وأنهم تدعـوهم فظـاظتهم إلى كل أمـر فظيع، وبـذلوا اطـلاق الاسرى، وشرطوا حمل مال الفـداء ومازالـوا يبتهلون ويضرعون، ويـذلون ويخشعـون، حتى استقرّ الأمـر أنهم يفادون، وأجيبت الصخـرة المقدّسة عنـد استصراخها، وبركت البركة النـاهضة اليها في مناخها، وغسلت مـن أوضارها وأوزارها بعبرات العيـون، ورجع اضطـرابها إلى السكـون، وفديـت بنـواظر أهـل

الايمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالايمان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلى اظلامها بإنارة سناء السراج، واعيدت الكنائس مدارس، وأضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس، وزالت ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدّل بالأنس فيها ماكان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابلس، وكل ماكان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلاّ صور فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدّم امتناعها، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها وأطماعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة».

ومن كتاب آخر:« فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه، فكيف تسنيه، وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فمنّ الله علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بأسفار فجره، وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيبت دعوتها، وأصيبت خطوتها، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء، وقوبلت قبلتها بقبل الافواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرّت عين الراني.

هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسي إلى يوم الحشر ذكره، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من الله مالزم على الأبد شكره، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، واغراقهم في أمواه الطلى والجماجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك

السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ماوضح من المنهاج، ونضوب ماكان نبع من الاجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكنا، وطرز به ملكنا، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه دهراً، واغتصب من الاسلام قهراً، وارتد كفراً، وامتدت به الأيام عمراً فعمرا، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجتراحه، فلا جرم أعده الله لأيامنا وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتحه بنا اظهاراً لفضل هذه الأيام، وايثاراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الاسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصرة، ومكنا من قلبها — وإن كان من الحجر — المسرة.

تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ماوجب، وجاء القدس إلى القدس، وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الاسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجر وفخم الفخر، وطاب النشر، وزاد البشر، ومحي الرجس، وثبت الطهر، وهلك المشرك وذل البطرك، وأقصي من المسجد الاقصى الساجد إلى الشمس، وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس.

عاد بيت الله المقدس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبادته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القدر في اتمام أمره بخطابه واشارته، وزادت الوجوه بشراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الاسلام المسجد الأقصى، وملكنا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بما سناه، من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالقهر مالكون، وفي سبيل القتل والاسر والسبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان ، ويبذلون الاذعان،حتى يسلموا المكان، فقيل لهم: الآن وقد عصيتم ورضيتم بما فيه هلاككم

وأبيتم، فروّعوا بقتل أسـارى المسلمين، وهـم ألوف، وعرفنا انهم لايقصرون في الشرّ فإن جهلهـم معروف، فتضرعـوا وتشفعوا وتعفـروا في تراب الـذل وتـوقعوا، وتقـرر عليهـم مال اشتروا بـه أنفسهم، فنـزعـوا به مـن الخوف ملبسهم، وسلمـوا القدس، فأعـدناه إلى القدس، وطهـرناه من ا لـرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فتـح بيـت الله المقدّس الـذي غلـق رهنـه، وطال في يـد الكفـر أسره وسجنه، واستهـل بغرّ أيـامنا مـزنه، وأنار يمنـه، وعاد بـاحساننـا حسنه، وزال بنا خـوفه وزاد أمنه، وبقـي قريب مائة سنـة في يد الكفر مسجـونا وبرجـس الشرك مشحونا، حتى أعـاد الله بنا رونقه، وأذهـب قلقـه، وأعدم فرقه.

وهذا فتـح لم يكن منـذ عصر الصحابـة رضي الله عنهم لـه نظير، وأفق الدين بـه منيف منير، وشرف أيامنا بـه كثير، وهو إمام فتوحنـا المدّخرة لنا ومالها بتأييد الله تأخير.

فتـح البيت المقـدس الذي لم يخطـر تمنيه بخـاطر الملـوك، وتوعـر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك، وحالت دونـه قنطاريات الفرنج وطوارقها، وجنت على الاسلام فيـه حوادث الليالي وطوارقها، حتى دعـانا الله لفتحه فـأجبناه، ووعـدنا بـالفوز فـأصبناه، وأوردنـا مشرع صفائه فـاستعذبنـاه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قـد أنزلت الأسواء بالاسـوار، وغارت الصخور للصخرة المبـاركة فجدّت في انقـاذها من الاسـار، وهتمت ثنايـا الأبراج، وأعضل بهافي العلاج داء الاعلاج، فعاينوا الحمام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامـت المنجنيقات على عصـابته حـد الرجـم، وواقعت ثنـايا شرفـاته

بالهتم، وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بشفة الأحجار المتداركة، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الاسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نهضت لاصراخ الصخرة المقدّسة الصخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور، فما أسرّ البيت الحرام، بفكاك أخيه من الأسر، واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر، وانقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوه، والحافها من البهاء والرونق والعز الاسلامي بكسوه، ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من أرجاس نجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الشرك صديت، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم من حسن الصحبة، ودنا المسجد الأقصى فأقصي منه الساجد للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأبدل الناقوس بالأذان، بل الكفر بالايمان، وصلى محراب الاسلام في المحراب الذي أسلم، وقدسنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنجح الأفخم، وقد ندب فلان في الرسالة القدسية والبشارة العرسية، التي تم به مأتم الكفر وعرس الاسلام، وعادبها المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام.

وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين، وفاضت عليها مياه أحداق الأولياء، فرحضت عنها أوضار الكافرين، وكان الاسلام منه غريبا، فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مأمنه ، وفاض العرف من منبعه، وأنار التوحيد من مطلعه، وعلا سنا السنه، وحلا جنا الجنه، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة، وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الائمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الايمان باشرة، ووجوه أهل

الصليب عوابس، ومحت من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى في محرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الاصعب».

obeikandl.com

- ٨٥٥٥ -

فصل

قال ا لعماد: وكان المولى الأجل الفاضل متـأخرا بدمشق لعارض مرض منّ الله بشفـائه فمن جملـة ماكتب السلطـان إليه:«أمـا الفتح فمـن جملة بركـات همته، وآثـار جذبـات عزمته، فـإن الله تعالى سهـل ماسجـل أهل الدهر بانه صعب، واهب نسيـم النصر إبان يقال ليس له مهب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنـا بهذه الفضيلة بصـالحي السلـف، وقـد بدّل الكفـر بالايمان، والناقـوس بالأذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجالـس الرهبان، وفتحـت بهذا الفتـح مـن بيت الله المقـدس أبـواب الجنـان، وتـزاحـم الخارجون من البلد من الفـرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحـراب، ورفع الملائكة ماكـان تكاثف بأنفـاس الكفر من الحجاب، وغسلت الصخرة المباركـة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غـزارة الأمواه، وقبلت بـالشفاه وبوشرت بـالأفواه، وطهرت بـأهل العلم والحلـم من أدناس أهل الجهـل والسفاه، والحمد لله، ثـم الحمدلله، وماكـان يعوزنـا ويعوزه إلاّ حضـور المجلس السـامي أسماه الله، فما لهذا الأمر رواء إلا بـروائه، ولا للانـس لقاء إلاّ بـأنس لقـائه، وكاد يتصحـف الفتـح لولا صـالح دعـائه، وحسن آلائه، والحمـد لله الذي خصنـا بهذه الخاصية، وفضلنـا بالنصرة القدسيـة، وذخر لنـا هذا البر الذي عجـز بل قصر عنـه ملوك البريـة، والحمد لله على هـذه النعمة السنيـة، فما أشوقنـا وأشـوق القدس إلى قـدومـه، وماأظمـأنا وأظمـأه إلى خصـوص الري بـه وعمومـه، وماحـظ هذا البيت الـذي هو أخو البيـت الحرام من زيـارته، وماآنق روضـه وأوفق رضاه إذا فاز بنظـره ونضارته، ونحن نعـرف أن همته العاليـة تحدوه، وأن دينه إلى إجـابة دعـوته تـدعوه، ونسـأل الله أن يكمل صحته، وينعـش قوّته، ويقـوّي نهضته، وما أقمنـا بهذا البلد إلاّ لتطهيره، وترتيب أمره وتدبيره».

ومـن كتاب آخـر: «نصرنـا الله بمـلائكته المسّـومين، وأوليـائه المؤمنين،

obeikandi.com

واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها، وهذه موهبة مذهبة ومنقبة لايبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة، ونوبة مابعدها للاسلام نبوه، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى(باركنا حوله) عرفت ، وظهرت الصخرة المقدسة وطهرت، وزهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث بجهل التوحيد وقهرت، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركناً ركنا، واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى.

فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمه، وكشف الملمة بل شرفنا بفخره، وأعدّنا لذخره، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ماكان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره، واصرخت الصخرة، وحفت بها النصره، وزالت عنها المضره، وعادت إليها المبره، ونعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبره، وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره، وحالت العره ولاحت الغره، وظهرت من صدف قبتها الدره، وصوفحت آثار القدم النبوية بالايمان، وجددت بعهدها صفقة الايمان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب الجنان لأهلها وأخرج منها أهل النيران، والحمدلله على هذا الاحسان، حمدا مستمرا على مر الزمان».

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن:«فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه، وافرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه، ودرج الملوك المتقدمين على تمني استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الالهي أن معاده في الآخرة إلى معاذه، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح، وليل فطرها بالتراويح».

ومن كتاب آخر:«البيت المقدّس صار مقدساً ، وأصبح للاسلام معرّسا، ورجع الاذى بالأذان، وصوفحت الصخرة المقدسة بأيمان أهل الإيمان، وماصلت في محراب البيت المقدس الثقاة حتى صلت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات، وماتم الرضى بفتح المسجد الأقصى حتى أقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وماتبوأ المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلى بالنار مثواه، صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالأيدي ، وقال لأولياء الله أهل الاخلاص أهلا بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدي، وعاد المسجد الأقصى للمصلين المقربين جنة ومنارا، بعد أن كان للمقصين المصلين ناراً دارا، وتسلم محرب الاسلام محرابه، وأصحب لآلافه لما ألفى أصحابه، وترنح المنبر لترنم الخطيب، وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب.

خلا باله من أمر القدس بإعادته إلى قدسه، وإخلائه من رجز الشرك

ورجسه، وإجلاء داويه واسبتاره وبطركه وقسه، وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بأنسه، ورد الاسلام الغريب إلى بيته المقدس، ونفي الكافر منه كاسف البال راغم المعطس، ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الإمامية، ورفع مارفع قدره من الأعلام العباسية، والافراج عن محرابه بهدم مابني دونه من مباني الشرك، وكشف استار الكفرة التي حجبت بالهتك والفتك، وإقامة الجمع فيه والجماعات، وادامة أوراد العبادات به ووظائف الطاعات، وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسيء عنها بافاضة ثوب المحسن، وتنزيه تلك الجنة من دنس أهل النار، واعلاء ماكان درس من معالم الأبرار، ومطالع الأنوار، وقد رجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ماكانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى، ومناخ التعريس، وقد أقصي عن المسجد الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ماجمع الاسلام فيه شملاً، ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عذبها(نصر من الله وفتح قريب)، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ماكاد ينسى من عهد المعراج النبوي، وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدي.

عاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قسيسه، وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت فيه الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثار القدم

النبويـة بتجديد عهودهـا، وشهد مقام المعـراج وموطىء براقـه، ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقـه، ودنا المسجـد الأقصى للراكـع والساجـد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:«تقلص ظـل الكافر المبسوط، وصدق الله أهـل دينـه، فلما وقـع الشرط وقع المشروط، وجـاء أمـر الله وأنـوف أهـل الشرك راغمه، وادلجت السيـوف والآجال نـائمة، واسترد المسلمـون تراثـا كـان عنهم آبقـا، وظفروا يقظـة بها لم يصـدقوا انهم يظفـرون به طيفـا على النائم طارقا».

ومنه في وصف نقـب السور:« فأخلي السور مـن السيارة، والحرب من النظاره، وأمكـن النقاب أن يسفـر للحرب النقـاب، وأن يعيد الحجـر إلى سيرته من التراب، فتقـدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معـوله، وحل عقده بضربـه الأخرق الدّال على لطافـة أنمله، واسمع الصخـرة الشريفة حنينـه فـاستغاثتـه إلى أن كـادت تـرق لمقتلـه، وتبرأ بعض الحجـارة مـن بعض، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض.

ثـم قـال: واستقـرّت على الأعلى أقـدامهـم، وخفقـت على الأقصـى أعلامهم ، وتـلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كـانت صخرة كما يشفى بالماء غللهم، وملك الاسلام خطـة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمهـا الكفر إلى أن صارت روضة جنـان، لاجرم أن الله أخرجهـم منها وأهبطهم، وأرضـى أهل الحق وأسخطهـم، وأوعز الخادم بـرد الأقصى إلى عهده المعهود وأقـام له من الائمة من توفيـه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابـع شعبان، فكادت السموات للنجوم ينفطـرن، والكواكب منهـا للطرب ينتثـرن، ورفعـت إلى الله كلمـة التوحيـد، وكـانـت طريقهـا مسدودة، وظهـرت قبور الأنبياء وكـانت بـالنجاسات مكـدودة، وأقيمت الخمس، وكـان التثليث يقعدها، وجهـرت الالسنة بالله أكبر وكـان سحر

الكفر يقعدها، وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر فرحب به ترحيب من بر، وخفق علماه في حفافيه، فلو طار سروراً لطار بجناحيه، وكان الخادم لايسعى سعيه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولايقاسي تلك البؤسى إلاّ رجاء هذه النعمى، ولايحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا، وكانت الألسنة ربما سلقته فانضج قلوبها بالاكتفاء والاقتصار، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلب خطيراً خاطر، ومن رام صفقة رائجة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر».

ووصف فيه يوم حطين فقال:«وكان اليوم مشهوداً، وكانت الملائكة شهودا، وكان الضلال صارخا وكان الاسلام مولوداً، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالدين وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مادهموا قط بأمر إلاّ وقام بين دهمائهم يحرضّهم، يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه، لاجرم أنه يتهافت على ناره فراشهم، ويجتمع في ظل ظلامه خشاشهم، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه، ولم يفلت منهم معروف إلاّ القمص، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، ومليئا يوم الخذلان بالاحتيال فنجا ولكن كيف، وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرمح وجناح السيف، ثم أخذه الله بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده، وكان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية السوداء صبغاً للبيضاء صنعاً الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها».

فصلٌ

قال العماد ومن قصائدي التي هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو مخيم عليه:

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا
وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا
وأسأل عنكم عافيات دوارس
غدت بلسان الحال ناطقة خرسا
معاهدكم ما بالها كعهودكم
وقد كررت من درس آثارها درسا
وقد كان في حدسي لكم كل طارق
وما جئتم من هجركم خالف الحدسا
أرى حدثان الدهر ينسي حديثه
وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى
تزول الجبال الراسيات وثابت
رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى
حسبت حبيبي قاسي القلب وحده
وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى
أمالكم يا مالكي الرق رقة
يطيب بها مملوككم منكم نفسا
وإن سروري كنت أسمع حسه
فمذ سرت عنكم ما سمعت له حسا
وإن نهاري صار ليلاً لبعدكم
فما أبصرت عيني صباحا ولا شمسا
بكيت على مستودعات قلوبكم
كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا
فلا تحبسوا عني الجميل فإنني
جعلت على حبي لكم مهجتي حبسا

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى

وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى إلاّ أنامله الخمسا

سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القعسى

فلا عدمت أيامنا منه مشرقا
ينير بها يولي ليالينا الدمسا

جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الانسا

فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدّسا
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا

نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا

وعادت ببيت الله أحكام دينه
فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا

وقد شاع في الآفاق عنك بشارة
بأن أذان القدس قد بطل النقسا

جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

وكم لبني أيوب عبد كعنتر
فإن ذكروا بالباس لا يذكر عبسا

وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى

obeikandi.com

وعكا وما عكا فقد كان فتحها
لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين كلها
بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف ويبنى وغزة
تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم
فمنظره بل أمره أربد وأرجسا
وصار بصور عصبة يرقبونكم
فلا تبطئوا عنها وحسوهم حسا
توكل على الله الذي لك أصبحت
كلاءته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقين واجتث أصلهم
فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولا تنس شرك الشرق غربك مرويا
خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرج فاقصد بلادهم
بعزمك واملا من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم
وقد طردت عنه ذئابها الطلسا

وهي طويلة وقد تقدّم بعضها في ذكر كسرة حطين، وللعماد أيضا من جملة القصيدة التي مدح بها حسام الدين بن لاجين وقد تقدّم بعضها:

قل للمليك صلاح الدين أكرم من
يمشي على الأرض أومن يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى
صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب
وابعث إلى ليل انطاكية العسسا

وأخـل سـاحـل هــذا الشـام أجمعـه
مــن العــداة ومــن في دينــه وكســا
ولا تـــدع منـــه نفســـا ولا نفســا
فــإنهم يــأخــذون النفــس والنفسـا
نـزلـت بـالقــدس فـاستفتحتـه ومتـى
تقصـد طـرابلسـا فـانـزل على قـدسـا

ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر:

أبشـــر بفتـــح أميـــر المـــؤمنيـــن أتـــى
وصيتـــه في جميـــع الأرض جـــواب
مـــا كـــان يخطـــر في بـــال تصّـــوره
واستصعـــب الفتـــح لما أغلـــق البـــاب
وخـــام عنـــه الملـــوك الأقـــدمـــون وقـــد
مضـــت على النـــاس مـــن بلـــواه أحقـــاب
وجـــاء عصرك والأيـــام مقبلـــة
فكـــان فيـــه لفيـــض الكفـــر انضـــاب
نصراً أعـــاد صـــلاح الـــديـــن رونقـــه
إيجازه ببليـــغ القـــول اسهـــاب
قـــرع الظبـــى بـــالظبـــى في الحرب يطـــربـــه
لا قينـــة صنـــع بـــاللحـــن مطـــراب
أحيـــا الهدى وأمـــات الشرك صـــارمـــه
لقـــد تجلى الهدى والشرك منجـــاب
بفتحـــه القـــدس لـــلاســـلام قـــد فتحـــت
في قمـــع طـــاغيـــة الاشراك أبـــواب
ففـــي مـــوافقـــه البيـــت المقـــدس للـــ
ـــبيت الحرام لنـــاتيـــه وإعجـــاب
والصخـــر والحجـــر الملثـــوم جـــانبـــه
كـــلاهما لاعتمار الخلـــق محراب

نفى من القدس صلباناً كما نفيت
من بيت مكة أزلام وأنصاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان عند فتح القدس، وقد ذكر العماد من ذلك جملة في أواخر كتاب البرق، فرأيت تقديم مااخترته منها هنا، وزدت عليه مالم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم ابن عمر بن حسان الاندلسي الجلياني منها

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى
أخرى الزمان على خبر بخبرته

فلو رآك وقد حزت العلى عمر
في قلة التل قضى كنه عبرته

ولو رآك وأهل القدس في وله
أبو عبيدة فدى من مسرته

غداة جزوا النواصي في قمامته
وأعولوا بالتباكي حول صخرته

دارت بك الملة الحسنى فنحن على
عهد الصحابة في استمرار مرته

وأنت كاسمك صديق وصاحبه
الملك المظفر سام في مبرته

وفي السلالة عثمان يؤيده
علا عليّ على ايثار نصرته

وكم لديك ذوو قربى رقوا شرفا
وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته

يشبه الفتح(٥٣) ما بين البزاة لقى
ملك الفرنج أخيذا بين عترته

أما رأيت معالي يوسف بسقت
حتى رمت كل ذي ملك بحسرته

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه
وبات يطوي العدى في سدّ ثغرته

واستقبح الرجس ممنوّا بمشهده
فاستفتح القدس محشوّا بزمرته

لكن بأس صلاح الدين أذهلهم
بوقعة التل واستشراء سورته

يعمي الجوارح والفرسان وهو على
بدء النشاط عشيا مثل بكرته

يا فاتح المسجد الأقصى عليّ بهم
وقانص الجيش لا يحصى بقفزته

أبشر بملك كظهر الشمس مطلع
على البسيطة فتاح بنشرته

حتى يكون لهذا الدين ملحمة
تحكي النبوّة في أيام فترته

قال: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسن بن المجاور، الوزير العزيزي، قصيدة، وعرضتها على السلطان بالقدس، وفيها ذكر الانكلتيز، وفتح يافا، وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها وسيأتي الباقي المختار أيضا:

الوقت أضيق من سماع قصيدة
موسومة لصفات أغيد أهيف

الجدّ في هذا الزمان مبين
والهزل فيه مع الغواية مختف

بالناصر المهدي والهادي إلى
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف

المستعين بربه والواثق الـ
ـمنصور والمستظهر البر الوفي

شدّت قوى أركان ملة أحمد
وتجملت بجهاده في الموقف

ملك إذا أم الملوك جنابه
لاذو بأكرم من يؤم وأشرف
واذا أتوا أسرى إلى أبوابه
وقفوا بأعظم من يصول وأرأف
مولى غدا الذين أكرم والد
حدب على أبنائه مترفرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه
أعظم به من صارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم
وأقام في الانجيل حد المصحف
مغرى بتجريح الرجال لأنه
يروي أحاديث العوالي الرعف
ملك له في الحرب بحر تفقه
وله غداة السلم زهد تصوّف
وعليه أنزل في الجهاد مفصل
فلذاك يقرأوه بسبعة أحرف
عزم وحلم انسيا ما كان من
عزم ابن مرداس وحلم الأحنف

يا أيها الملك الذي لطباعه
وسيوفه خلقا رضى وتعسف
لله يوم عروبة إذا عربت
ساعاته عن نصرك المتعرف
سنت سيوفك في الرؤوس ختانة
ذهبت بمهجة كل علج أقلف
آفاتهم وافت بأخذك منهم
يافا فكم من حسرة وتأسف
أو ما رأى الأعلاج حين دعوتها
بلسان سيف في الكريهة ملحف

لم تستطــع عصيــان أمــرك بــل أتــت
منقــادة طـــوعـــا ولم تتخلـــف
فـــاستـــدع جـــارتها وثـــن بـــأختهـــا
وكـــذاك حتـــى الأربعين ونيـــف
مـــا للسـواحـل غير بحـرك حـافـظ
بشبـاسنـــان أو بصفحـــة مـرهـــف
هـــذا الطـــراز الأخضر استفتحتـــه
فــزهـــى بثـوب مـــن عـلاك مسجـف
أحييـــت ديـــن محمـــد وأقمتـــه
وسترتـــه مـــن بعـــد طـــول تكشـــف
وضبطـــت ديـــوان الجهـــاد بعـــامـــل
مـــن عـــامـــل وبمشرف مـــن مشرفي
وبجهبـــذ العـــزم الـــذي لا ينثنـــي
وبنـــاظـــر الـــرأي الـــذي لم يطـــرف
فخـــذ الخراج مـــن البسيطـــة كلهـــا
واستـــأد فـــرضي جـــزيـــة ومـــوظـــف
واقبـــض على الـــدنيـــا بكـــف زهـــادة
وابســـط لـــرحمتهـــا جنـــاح تعطـــف
جـــاءت جنـــود الله تطلـــب ثـــارهـــا
وصـــدورهـــا بـــل عـــن قليـــل تشتفـــي
فـــانهض بها وتقـــاض حقـــك مـــوقنـــا
أن الإلـــه بها تـــؤملـــه حفـــي
هـــم فتيـــة الاتـــراك كـــل مجفجـــف
يغشـــى الكـــريهة فـــوق كـــل مجفجـــف
قـــوم يخوضـــون الحمام شجـــاعـــة
لا ينظـــرون إليـــه مـــن طـــرف خفـــي
إن صبحـــوا الأعـــداء في أوطـــانهم
تـــركـــوا ديـــارهـــم كقـــاع صفصـــف

أنـــت اصطفيتهـــم لنصرة ديننـــا
لله در المصطفـــــى والمصطفـــــي

قلت: وذكرت بقوله «هذا الطراز الأخضر استفتحته» حكاية حسنة لائقة بالحال، حدثني به شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال: قرأت بخط شيخنا أبي افضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، قال: رأى انسان كأن شخصا ذا جهامة واقفاً على حائط بجامع دمشق يسمى النسر، وهو يقول:

ملـك الصيـاصي والصـواصي نـاصر
للـديـن بعـد إيـاسـه أن ينصرا
وسيفتـح البيـت المقـدّس بعـدمـا
يطـوى الطـراز لـه ويقتـل قيصرا

قلت: وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين

وقرأت بخط بعض أصحابنا قال: وجدت على حاشية كتاب يروى عن خطيب كان بالرقة، أنه رأى من ينشده هذا الشعر في النوم سنة احدى وثلاثين وخمسائة، فذكر البيتين وهذا قبل الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مولد صلاح الدين بسنة، والمعني بالطراز الأخضر بلاد الساحل المصطفة على بلاد البحر من الداروم، وغزة، وعسقلان، وعكا وصيدا، وبيروت، وجبيل، وغير ذلك، ولم يبق من الطراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا و عكا، وهكذا كان الأمر على ماسبق بيانه فتح هذا الطراز أولاً ثم فتح البيت المقدّس، وكنى بقيصر عن الأبرنس الذي قتله بيده لأنه كان من رؤس الكفر وملوكهم وغلاتهم في معاداة الإسلام والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من أهل بغداد ينفذ إلي قصائده لأعرضها، فرأيت أن أثبت له

هذه القصيدة في الفتح و هي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منها:

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم لهذا الفتح برهان

متى رأى الناس ما نحكيه في زمن
وقد مضت قبل أزمان وأزمان

هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما
له سوى الشكر بالأفعال أثمان

أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
صيدا وما ضعفوا يوماً وما هانوا

كم من فحول ملوك غودروا وهم
خوف الفرنجة ولدان ونسوان

استصرخت بملكشاه طرابلس
فخام منها وصمت منه آذان

هذا وكم ملك من بعده نظر الاسـ
ـلام يطوى ويحوى وهو سكران

تسعون عاما بلاد الله تصرخ والـ
إسلام أنصاره صم وعميان

فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم
بأمر من هو للمعوان معوان

للناصر ادّخرت هذي الفتوح وما
سمت لها همم الاملاك مذ كانوا

حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا
ل الناس داود هذا أم سليمان

في نصف شهر غدا للشرك مصطلما
فطهرت منه أقطار وبلدان

فأين مسلمة عنها وأخوته
بل أين والدهم بل أين مروان

وعدّ عما سواه فالفرنجة لم
يبدهم من ملوك الارض انسان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد
تنزلت فيه آيات وقرآن
ياقبح أوجه عباد الصليب وقد
غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خزنت عند إله العرش سائر ما
ملكته وملوك الأرض خزان
فالله يبقيك للاسلام تحرسه
من أن يضام ويلفى وهو حيران
وهذه سنة أكرم بها سنة
فالكفر في سنة والنصر يقظان
ياجامعا كلمة الايمان قامع من
معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما
يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وللشريف النسابة المصري محمد بن أسعد بن علي بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية، من قصيدة:

أترى مناما مابعيني أبصر
القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة قمت من الرجس الذي
بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم في القيد مصفود ولم
ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي
وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

فتـح الشـآم وطهـر القـدس الـذي
هـو في القيـامـة للأنـام المحشر
مـن كـان هـذا فتحـه لمحمـد
مـاذا يقـال لـه ومـاذا يـذكـر
يـا يـوسـف الصدّيـق أنـت لفتحهـا
فـاروقهـا عمـر الإمـام الأطهـر
ولأنـت عثمان الشريعـة بعـده
ولأنـت في نصر النبـوّة حيـدر
ملـك غـدا الاسـلام مـن عجـب بـه
يختـال والـدنيـا بـه تتبختر
نثـر ونظـم طعنـه وضرابـه
فـالـرمـح ينظـم والمهنـد ينثـر
حيث الـرقـاب خـواضـع حيـث العيـون
خـواشـع حيـث الجبـاه تعفـر
غـاراتـه جمع فـان خطبـت لـه
فيهـا السيـوف فكـل هـام منبر
إذ لا تـرى إلاّ طلى بسنـابـك
تحذى نعـالا أودمـاء تهدر
وصـوافنـا تختـار إن تطـأ الثـرى
فيصـدهـا عنـه طلى وسنـور
تمشي على جثـث العـدا عـرجـا ولا
عـرج بها لكنهـا تتعثـر

وقال أبو الحسن بن جبير الاندلسي:
أطلـت على أفقـك الـزاهـر
سعـود مـن الفلـك الـدائر
فـابشر فـان رقـاب العـدا
تمدّ الى سيفـك البـاتـر

وكم لك من فتكة فيهم
حكت فتكة الأسد الخادر
وكسرت صليبهم عنوة
فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها
فليس لها الدهر من جابر
وأمضيت جدك في غزوهم
فتعسا لجدّهم لعاثر
وأدبر ملكهم بالشآم
وولى كأمسهم الدابر

جنودك بالرعب منصورة
فناجز متى شئت أو صابر
فكلهم غرق هالك
بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى في العدا
فاثر لله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى
فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً
فلله أجرك من صابر

تبيت الملوك على فرشهم
وترفل في الزرد السابر
وتؤثر جاهد عيش الجهاد
على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك في حق من
سيرضيك في جفنك الساهر
فتحت المقدّس من أرضه
فعادت إلى وصفها الطاهر

obeikandl.com

وجئت الى قدسه المرتضى
فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى
وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذا الفتو
ح من الزمن الاوّل الغابر
وخصك من بعد فاروقه
بها لا اصطناعك في الآخر
محبتكم ألقيت في النفوس
بذكر لكم في الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملوك
لمثلك من مثل سائر

وباقي القصيدة تقدم في أخبار سنة أربع وسبعين، وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي:

أعيّا وقد غاينتا الآية العظمى
لأية حال تدّخروا النثر والنظما
وقد شاع فتح القدس في كل منطق
وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
حبا مكة الحسنى وثنى بيثرب
وأطرب ذياك الضريح وما ضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها
فيشهد أن السيف من يوسف أصمى
وما كان إلا الداء أبيا دواؤه
غير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما
وأسنة الاغماد توسعه لثما

سلوا الساحل المخشي عن سطواته
فما كان إلاّ ساحلا صادف اليما

وله من قصيدة أخرى في السلطان:
عصفت به ريح الخطوب زعازعا
فلقين طودا لا تخاف أناته
هو منقذ البيت المقدّس بعدما
طالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وإنما
عند الزحاف تحركت سكناته
أمشتت الأعداء هي جحافل
عن شمل دين جمعت اشتاته
أوتيت عزما في الحروب مسددا
لا زيغه يخشى ولا هفواته
أحسنت بالبيت العتيق ويثرب
ولك الفعال كثيرة حسناته
هذه سيوفك مرمات دونه
لبكائهن تبسمت حجراته

له فيه من قصيدة أخرى:
هو الفاتح البيت اقدّس بعدما
تحامته سادات الدنا ومسودها

فضيلة فتح كان ثاني خليفة
من القوم مبديها وأنت معيدها

وله من قصيدة في بعض أارب السلطان:
الست من القوم الأولى بسيوفهم
نواصخرة البيت المقدّس مسجدا

وللعماد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الأفضل:

والقـــدس أعضـــل داؤه مـــن قبلكـــم
فـــوفيتـــم بشفـــاء ذاكَ المعضـــل
درج الملـــوك على تمنـــي فتحـــه
زمنـــا وغلتهـــم بـــه لم تبلـــل
وأتـــى زمـــانكـــم فـــأمكـــن آخـــرا
مـــا قـــد تعـــذر في الـــزمـــان الأوّل
مـــاكـــان قـــط ولا يكـــون كفتحكـــم
للقـــدس في الماضي ولا المستقبـــل
أوجـــدتـــم منـــه الـــذي عـــدم الـــورى
وفعلتـــم في الفتـــح مـــا لم يفعـــل
أيـــدي الملـــوك تقـــاصرت عـــن مفخـــر
طلتـــم بـــه فبلـــو البعـــض الأنمـــل
أحييتـــم شرع الكـــرام ولم يـــزل
نصر المحـــق بكـــم وقهـــر المبطـــل

وله قصيدة في مدح الملك المؤيد:
وكـــم لبنـــي صـــلاح الـــديـــن فينـــا
على الاســـلام مـــن حـــق تـــأكـــد
وإن لهم على الأمـــــلاك طـــــرا
بفتـــح القـــدس فضـــلا ليـــس يجحـــد

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:
هـــم الملـــوك ذوو بـــأس ومكـــرمـــة
إن ســـالموا أمنـــوا أو حـــاربـــوا خيفـــوا
أغنـــاهـــم القـــدس عـــن قـــول الـــورى فتحـــت
عكـــا وصيـــدا و بيروت وأرســـوف

جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم
كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله

ملك به وأبيه يفتخر العلا
ويفوق فخرهما السها والفرقدا
ما يوسف ممن يقاس بحاتم
أنى وقد وهب الحصون وأصفدا
او ان يقال كأنه يوم الوغى
والروع كالاسد الهصور إذا عدا
أو من يشبه جوده بغمامة
أو من يقال لمثله عمر الردى
بل مالك الدنيا ومالىء رحبها
خيلا ورجلا ناصر دين الهدى
ومخلص البيت المقدس بعدما
رفع الصليب على ذراه ومجدا
ومن الملوك الصيد يلقاهم إذا
رفع السرادق راكعين وسجدا
وبه أتى البيت الحرام وفوده
من كل فج آمنين المردا

من بعد ما درست معالم سبله
دهراو ء حرمها أن يقصدا

opelkandil.com

فصل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وهم محمد بن القادسي في تاريخه فيما قرأته بخطه، فإنه قال: فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه، ولبس خلعة سوداء ، ولم يكن السطان هو الذي باشر الخطبة على ماسنذكره، وقد تقدم أن يوم الفتح وإن كان يوم الجمعة ، إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه

قال العماد : لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا، وتركوه للغلة هرياً، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغيا،وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ماقدّامه من الأبنية وتنظيف ماحوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ماأحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلي التنزيل،و حق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانثابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان ، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبؤس، وطابت الانفاس والنفوس،وأقبلت السعادات، وأدبرت النحوس ،وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه وطلب الفضل من معدنه، وورد القرّاء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد، وعبد الواحد،

ووجد العابد، وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد،والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتجهد والساهد، والزائر والوافد، وصدح المنبر، وصدع المذكر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر ، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدّثت الرواة، وروى المحدّثون وتحنف الهداة، وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون، ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون، وفسر الملخصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالاصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرتبة، ورتب الخطبة، وانشأ معني شائقاً، ووشى لفظا رائقاً ،وسوى كلاماً بالموضع لائقاً،و روى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عرض عليّ خطبته، وطلب مني نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق بمنيته فيها أمنيته، وكلهم طال إلى الإنتهاء بها عنقه، وسال من الإلتهاب عليها عرقه، ومامنهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع ، ويتشوف ويتشفع، وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب في أخماسه أسداسه، ورفع لهذه الرياسة رأسه، والسلطان لا يعين ولايبين، ولايخص ولاينص، ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الأولى وفزت باليد الطولى،وإذا ظفرت بطالع سعدي، فما أبالي بمن خطب بعدي، فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلأ الجامع، واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقة القلوب المدامع، وراعت لجليه تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وغصت بالسابقين إليها المواضع، وتوسمت العيون،وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم

الـذي فيه انتعـش الإسلام وانتـاش، ومـا أفضل هـذه الطائفـة الحاضرة، والعصبـة الطاهـرة، والامـة الظـاهرة، ومـا أكـرم هـذه النصرة الناصريـة، والاسرة الإمـاميـة، والـدولـة العبـاسيــة، والمملكـة الأيـوبيـة، والـدولـة الصلاحيـة، وهل في بلد الإسلام أشرف مـن هذه الجماعة التـي شرفها الله بـالتـوفيق لهذه الطـاعـة، وتكلمـوا فيمـن يخطب، ولمن يكـون المنصـب، وتفاوضـوا في التفويـض، وتحدّثوا بالتصريـح والتعريـض، والأعلام تعلى، والمنبر يكسـى ويجلى، والأصـوات تـرتفع، والجماعـات تجتمـع، والأفـواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين مـن الضجيج مافي عرفات للحجيج، حتى حـان الزوال، وزال الإعتـدال، وحيعل الداعـي، وأعجل السـاعي، فنصب السلطان الخطيـب بنصه، وأبان عن اختياره بعـد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الديـن أبي المعالي محمد بن زكي الديـن علي القرشي بأن يرقى ذلـك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمـه عرقى، فأعرتـه من عندي أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمـل له شرف الإفاضة والإضافة، فـرقـى العـود، ولقـي السعود، واهتـزت أعطـاف المنبر، واعتـزت أطـراف المعشر، وخطب وانصتوا، ونطـق وسكتوا وأفصح وأعرب، وأبـدع وأغرب، وأعجز وأعجـب، وأوجز وأسهـب، ووعظ في خطبتيـه وخطب بمـوعظتيه وأبـان عن فضـل البيت المقـدّس وتقـديسه، والمسجـد الأقصى مـن أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه،و إخراس نـاقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفـة والسلطـان، وختـم بقـولـه تعـالى:(إن الله يـأمـر بـالعـدل والإحسان)[٥٤]ونزل وصلى في المحراب وافتتح ببسم الله الـرحمن الرحيم من أم الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نـزول الرحمة، وكمل وصول النعمة، ولما قضيت الصـلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقـد الإجماع، واطرد القياس، وكـان قد نصب للوعـظ تجاه القبلة سرير ليفرعـه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجـا، فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقـى، ومن هلك ومن نجا، وخوّف بـذي الحجة ذوي الحجا، وجلا بنـور عظاته من ظلـم الشبهات مادجا، وأتـى بكل عظة للراقـدين

موقظـة، وللظالمين محفظـة، ولأولياء الله مرققـة ولأعداء الله مغلظـة، وضج المتباكون وعـج المتشاكون، ورقت القلوب، وخفت الكـروب، وتصاعدت النعـرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبـون وأنـاب المتحـوبون، وصـاح التـوابـون، ونـاح الأوابـون، وجـرت حـالات جلـت، وجلـوات حلـت، ودعـوات علت، وضراعـات قبلت، وفـرص مـن الولايـة الالهية انتهـزت، وحصص مـن العناية الربـانية أحرزت، وصلى السلطان في قبـة الصخرة، والأيدي إلى الله مـرفوعـة، والدعوات لـه مسموعـة، ثم رتـب في المسجد الاقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصبته.

قلت: هـذه الفاظ العماد في هـذا الفصل مـن كتاب الفتـح، وذكره في كتاب البرق بعبـارة أخرى، تشتمل على فـوائد زائدة، وفي تكرار مـاتقدم أيضـاً بغير تلك العبـارة فـائدة، فإنها معـان جليلـة، كلما ذكرت جلـت، وكلما تكررت حلت.

فصل

قال العماد في كتاب البرق: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، تقدم السلطان في المسجد الاقصى ببسط العراص، واخلائها لأهل الاخلاص، وتنظيفها من الأدناس ، وكنس مافي أرجائها من الأنجاس ، وقد كان سبق أمره من مبدأ الامر بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوضع الكريم، فقد كان الداويه بنوا غربيه داراً وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للاعلال، وجانباً هريا للغلال، فأمر في ا لعاجل بكشف قناعه، ورفع الوضيع من أوضاعه، ونقل ماوقع من انقاضه، ونقض مااعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه، حتى ظهر موضع المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ماقدّامه من الحجاب، واجتمع الخلق في ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا وتعانوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه، ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه، والهمم مراحه، والخواطر إلى وردها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالاً، حتى إذا حيعل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة من قبة الصخرة ، بادية على أساريره أسرار سروره بالأسرة، وامتلأت تلك العراض والصحون، واستعبرت للفرح بما يسره الله العيون، وآن لدين الله أن تقضى له الديون وتفك الرهون، ووجلت القلوب وخشعت الأصوات ، وحسنت الظنون ،و عين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وفرع تلك الرتبة، فصعد وسعد، وحمد و أحمد، وأدت المعاني الشريفة ألفاظه، ونبه الأقاصي والأداني إيقاظه، وجلا المسامع ، وجلب المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع

والنهج المتبوع، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح البكـر ماافتض به ابكار الاستعارات بأبـدع البراعات ، وأبرع العبارات ، وصدح بـالصدق، ونطق بـالحق ، وفـاز بـالسبق، وحـاز على فضـلاء الغرب والشرق، فهـو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قس في عكاظه، من قياس ألفاظه، وأيـن سحبان من سجعاته، وأين ابن نباتـة من نباته، ولـو عاشـا لافتقـراإلى فقره واحتقـرا أعراضهما عنـد جـوهره، ودعـا لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونـزل وقام إماماً أكمل بصـلاته الفرض، وأرضـى بسمت دعـواتـه والطمأنينـة في ركعاتـه وسجـداته أهـل السماء والأرض، وسر السلطان بنصبـه ورفعه ، وامتلأ صـدره حبوراً منـه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة ، وعظمت أخطـار المهابة في خواطـر المحبة، وكرمت سرائر الـزلفى إلى الله والقـربـة، ثـم رتـب السلطـان بعــده خطيبـاً يستمـر إقـامتـه للجمـع والجماعات، وتستقـر ملازمتـه لأداء الصلوات، ولما قضيـت الصلاة تلـك الجمعة، نصب سريـر للوعظ أبقى تلك الأمة المجتمعـة، وتقدم السلطان إلى زيـن الديـن الواعـظ ليفـرع السرير، وينفـع بعظاتـه الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمـع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمـع، فحقق ورقـق وأشهد وأشهـق، وخلب بعبـاراته الحلـوة العبرات، وشـار العسل بمعسـول الإشارات، وبشر البشر بشـارة البشارات، وذكـر الفتح وبكارته، والقـدس وطهارته، والدين وجسارتـه، والكفر وخسارته، والقـدر وإعـانتـه، والظفـر وإبـانتـه، والصخـرة وإصراخهـا، والـروعـة وإفراخهـا، والنار وصراطها، والقيامـة وأشراطها، والرحمة وبابها مـن باب الرحمة، والجنة وجناها لهذه الأمة، وماأعـده الله لهذه الطائفة، وماأنزله من الأمن على القلـوب الخائفة، ووصف ببلاغتـه مالايبلغ إليه نطـق الالسنة الـواصفة، ووصـف الجهاد وفـرائضـه وفضائلـه والخير ودلائله، والنجـح ووسـائلـه، والشرع ومسـائلـه، والـذنـب وغـوائلـه، وإحسـان السلطـان وفواضلـه، والبحر وساحلـه، والدين وحقـه، والكفر وبـاطله، وكان يـوماً راجحاً وسوماً رابحاً.

فصل

في إيراد ماخطب به القاضي محيي الدين رحمه الله

قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بافشائه، وذكرت الخطبة الأولى ويد الفصاحة فيها طولى، افتتحها بهذه الآيات:

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)[٥٥](الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)[٥٦] (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)[٥٧] (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)[٥٨] الآية (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب)[٥٩] (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)[٦٠](الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض)[٦١] و(الحمد لله فاطر السموات والأرض)[٦٢]

والخطبة هي:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على اظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له الأحد (الصمد) الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك. وراحض الأفك.

الذي أسرى بـه من المسجد الحرام إلى هذا المسجـد الأقصى. وعـرج به منه إلى السموات العلى إلى (سدرة المنتهى. عنـدها جنة المأوى. إذ يغشى السـدرة مـا يغشـى. مـازاغ البصر ومـا طغـى) (٦٣) صلى الله عليـه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السـابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفـع عن هذا البيت شعـار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النوريـن جامع القـرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طـالب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان.

أيها الناس أبشروا بـرضوان الله الـذي هو الغـاية القصـوى، والدرجـة العليـا، ولما يسره الله على أيديكـم مـن استرداد هذه الضـالـة من الأمـة الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسـلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مـائة عام، وتطهير هذا البيـت الذي أذن الله أن يـرفع وأن يذكـر فيه اسمه(٦٤) وإماطـة الشرك عن طرقه، بعـد أن امتد عليها رواقـه، واستقر فيها رسمه، ورفـع قواعده بالتوحيد، فـإنه بني عليه وبالتقوى فـإنه أسس على التقوى من خلفه ومـن بين يديه، فهو موطن أبيكـم ابراهيم، ومعراج نبيكـم محمد عليـه السلام، وقبلتكـم التـي كنتم تصلـون إليها في ابتـداء الإسلام، وهو مقر الأنبيـاء ومقصد الأولياء ومقر الرسل، ومهبـط الوحي، ومنزل تنـزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيـد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتـابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسـول الله صلى الله عليه وسلـم بالملائكة المقـربين، وهو البلـد الذي بعث الله إليه عبده ورسـوله، وكلمته التي ألقاها إلى مـريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالتـه وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عـن رتبة عبوديته، فقال تعالى: (لـن يستنكف المسيـح أن يكون عبـداً لله) (٦٥) وقال :(لقـد كفر الذيـن قالـوا إن الله هو المسيـح بن مـريم) (٦٦) وهو أول القبلتين وثاني المسجـدين وثـالـث الحرمين، لاتشـد الرحـال بعـد المسجـدين إلا إليـه، ولاتعقد الخنـاصر بعد الموطنين إلا عليه، ولـولا أنكم ممن اختـاره الله من عبـاده واصطفـاه مـن سكـان بـلاده، لما خصكـم بهذه الفضيلـة التي

لايجاريكم فيها مجار، ولايباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية. والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية. و الفتوح العمرية، والجيوش العثمانية. والفتكات العلوية. جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية. فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم مابذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء . وتقبل منكم ماتقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها. وقوموا لله تعالى بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون وقرّ به عينا الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه. ونص عليه في خطابه. فقال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الآية. أليس هو البيت الذي عظمته الملوك و أثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الهكم عز وجل ، أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة العصيان، فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا اسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى. وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكم إن الله قد ذكركم به فيمن

عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهويتكم جنده. وشكركم الملائكة المنزلون على ماأهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد، وماأمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث. والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاك السموات. وتصلي عليكم الصلوات المباركات. فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم. وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم. واحذروا من اتباع الهوى. وموافقة الردى. ورجوع القهقرى. والنكول عن العدا، وخذوا في انتهاز الفرصة وإزالة مابقي من الغصة. وجاهدوا في الله حق جهاده. وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباده. وإياكم أن يستزلكم الشيطان. وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم إن هذا النصر بسيوفكم الحداد. وبخيولكم الجياد. وبجلادكم في مواطن الجلاد. لا والله (ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (٦٧). واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل. والمنح الجزيل. وخصكم بهذا الفتح المبين. وأعلق أيديكم بحبله المتين. أن تقترفوا كبيراً من مناهيه. وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً)(٦٨) (والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين)(٦٩) والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عباداتكم. وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم. اذكروا أيام الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم. جدوا في حسم الداء. وقطع شافة الأعداء. وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله. وأقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله. فقد نادت الأيام: بالثارات الإسلامية والملة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر . وغلب الله وقهر، أذل الله من كفر. واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها. وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها. وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرها. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول. وهم مثلكم أو يزيدون. فكيف وقد أضحى في

قبالـة الواحـد منهم منكـم عشرون. وقد قـال الله تعالى:(إن يكـن منكم عشرون صابرون يغلبـوا مائتين)[٧٠] أعاننـا الله وإياكم على اتبـا ع أوامره والازدجار بزواجـره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنـده (لأن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)[٧١].

وتمام الخطبـة الثانيـة قريـب مما جـرت به العـادة، وقال بعـد الدعـاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننـا عبدك الخاضع لهيبتك، الشـاكر لنعمتك المعترف بموهبتك، وسيفـك القاطـع، وشهـابك الـلامـع، والمحامـي عن دينـك المدافـع، والذابّ عـن حرمـك الممانـع، السيد الأجـل الملك النـاصر ، جـامع كلمـة الإيمان، وقـامع عبـدة الصلبـان، صلاح الـدنيـا والديـن، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبـا المظفر يوسف بن أيـوب، محيـي دولة أمير المؤمنين، اللهـم عـم بـدولته البسيطـة، واجعـل ملائكتك برايـاته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفـي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عـزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسـلام مهجته ، ووق للايمان حوزته ، وانشر في المغـارب والمشارق دعوته. اللهـم فكما فتحت على يده البيـت المقدّس بعـد أن ظنـت الظنون، وابتلي المؤمنـون. فـافتح على يـده أداني الأرض وأقاصيها، وملكـه صياصي الكفرة ونواصيها، فـلاتلقاه منهم كتيبة إلا مزقهـا ولاجماعة إلا فرقها، ولاطـائفة بعد طائفـة إلا ألحقها بمن سبقهـا، اللهـم اشكر عـن محمـد صلى الله عليـه وسلم سعيـه وأنفـذ في المشـارق والمغارب أمـره ونهيه، اللهـم أصلح بـه أوساط البـلاد وأطرافهـا وأرجاء الممالك وأكنـافها، اللهم ذلل بـه معاطس الكفار، وأرغـم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكـه على الأمصار، وأثـب سرايا جنـوده في سبل الأقطار، اللهم ثبـت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الديـن واحفظه في بنيه. وبني أيوب الملوك الميامين، واشدد عضده ببقـائهم، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهـم . اللهم كما أجـريت على يـده في الإسلام هـذه الحسنة التـي

تبقى على الأيام وتتخلد على مر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الـذي لاينفـد في دار المتقين، وأجـب دعاءه في قـولـه: (رب أوزعنـي أن أشكـر نعمتـك التـي أنعمـت علي وعلى والـديّ وأن أعمـل صـالحاً ترضاه)(٧٢)(وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)(٧٣) ثم ماجرت العادة به

obeikandl.com

فصل

في المنبر

قال العماد: لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسبنه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه، فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب فحمل وعمل على ماأمره به وامتثل، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظير، وكان من حديث احداثه ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه، أن البيت المقدس بعده سيفتح، وأن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملهمين، وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاختريني، من ضيعة تعرف باخترين، لم يلف له في براعته وصنعته قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النعت المهندم والنحت المهندس ، فجمع الصناع، وأحسن الإبداع وأتمه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل ،و ذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولايقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكفر الإيمان؟ وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب واتعب وقم القوم، ويقول من له قوّة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا فلسر هذه الامة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: (ويصنع الفلك وكلما مر عليه

ملأ) (٧٤) ولم يزل لنور الـدين في قلبه من الدين نـور، وأثر تقواه للمتقين مـأثور، أزهـد العباد، وأعبـد الزهـاد، وهـو من الأوليـاء الأبرار والاتقيـاء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتـح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيـب، ويزيده قوة عـزمه جداً، ويمدّه بحيـاء الحياة الربانيـة مداً، وقد طهـره الله من العيب، وأطلعـه على سر الغيب، ونـزهه من الـريب، لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركتـه، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولبـاه وأحبه وحباه ،و هو الذي سن الفتح وسنى النجـح، واتفق أن جامـع حلب في الأيـام النورية احترق فـاحتيج إلى منبر ينصب فنصـب ذلك المنبر، وحسـن المنظر وتـولى حينئذ النجـار عمـل المحراب على الـرقم، وشـابـه المحراب المنبر في الـرسم، ومـن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان

ولما فتح السلطان القـدس تقدم بحمله، وصح بـه في محراب الأقصى تفريـق شمله، وظهـر سر الكرامة في فـوز الإسلام بـالسلامـة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة

وقال العماد في موضع آخر من كتـاب البرق : وكان الملك العادل نور الديـن محمود بن زنكـي رحمه الله في عهده عرف بنـور فراسته فتـح البيت المقدس مـن بعده، فأمر في حلـب باتخاذ منبر للقدس، وتعـب النجارون والصناع والمهنـدسون فيـه سنين، وابدعـوا في تركيبـه الأحكام والتـزيين، وأنفق في إبداع محاسنـه وإبداء مزاينه ألـوفاً ، وكان لترديد النظـر فيه على الأيام ألـوفاً، وبقي ذلـك المنبر بجامع حلـب منصوباً ، سيفـاً في صوان الحفظ مقروباً، حتـى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفـاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعـه القدسي، فعرفت بذلـك كرامات نور الـدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الـذين قال الله تعالى فيهم : (والله يحب المحسنين).(٧٥)

قلت : وهذا الذي نسبه إلى نور الدين رحمه الله من أنه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين، وليس بالبعيد من مثل ذلك ،و كان رحمه الله قد بدت له مخايل ذلك بما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدوّ بين يديه مراراً، وكان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ماأسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه، ثم يحتمل أن يكون رحمه الله وقف على ماذكره أبو الحكم بن برجان الأندلسي في تفسيره فإنه أخبر عن فتح القدس في السنة التي فتح فيها ،و عمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم أن البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال : ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه أن يمتد عمره إليه فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه تقرباً إلى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه ، وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في تفسيره من عجائب مااتفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الروم إخبار عن فتح البيت المقدس وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. قال: وقال لي بعض الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السورة. قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك، فلم أره أخذ ذلك من الحروف وإنما أخذه فيما زعم من قوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير، قال،وهذه نجامة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه وليس ذلك بمأخوذ من الحروف ولاهو من قبيل

- ٨٥٩٣ -.

الكرامـات، أيضاً فإن الكرامـة لاتكتسب بحساب، ولاتفتقر إلى تـاريخ، ولـذلك لم يـوافق الصـواب لما أدار الحساب على القـراءة الأخرى الشـاذة التي هي بفتح الغين مـن (غلبت الروم) ويوضح ذلك أنـه قال في سورة القدر : لو علم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

obeikandl.com

فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة ، وأعادوا رسومها القديمة دريسه، وستروها بالأبنية، وعوّجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هي أشنع من التعريه، وملؤوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها اشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ، ولامطمحاً، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكان فيها صور الأنعام منبتة في الرخام، والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها ،و حسر لثامها ، وقشر رخامها ورحض وضرها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين،وحبيت بالقبل،و فديت بالمقل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقليه، وقيل باعوها بوزنها ذهباً ، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام.في خدرها وحرزها.

وقال في البرق: ولما ظهرت الصخرة وجدناها وقد أبقت لها النوائب حزوزا، وأودعت ضميرها من شر أهل الكفر شراً مرموزاً، فإن الفرنج نقلوا منها إلى بلادهم قطعاً، وأبدعوا فيها بدعاً حتى قيل إنها بيعت بوزنها ذهباً، وأفضى الأمر بها أن يكون حجرها منتهباً، فغطاها بعض ملوكهم إشفاقاً عليها لئلا تمتد يد ضيم إليها ، فأبقت حزوزها في القلوب حزازات، وسار حديث حادثها في الآفاق بروايات وإجازات، وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الدين عيسى فصانها بشبابيك من حديد، وثبت أركانها بكل تسديد.

وقال في الفتح: ورتب السلطان في قبة الصخرة إماماً حسناً، ووقف عليها داراً وأرضاً وبستاناً، وحمل إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات، وربعات معظمات، لاتزال بين أيدي الزائرين على كرسيها مرفوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبة خاصة وللبيت المقدس عامة قومة من العارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين ، فما أبهج ليلها وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع ، ودان الخضوع، ودرت من المتقين الدموع، واقشعرت من العارفين الضلوع، فهناك كل ولي يعبد ربه، ويأمل بره، وكل أشعث أغبر لايؤبه له، لوأقسم على الله لأبره، وهناك كمل من يحيي الليل ويقومه، ويسمو بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم القرآن ويرتله، ويطرد الشيطان ويبطله ومن عرفته لمعرفته الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأفكار، وماأسعد نهارها حين يستقبل الملائكة زوارها، وتلحق الشمس أنوارها، وتحمل القلوب إليها سرارها.

قال : وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه بها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم ودّ القلوب وشكر الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن وفعل ماأمكن،وجلى وبين، وحلى وزين، وأتى العادل أبو بكر بكل صنع بكر، وتقي الدين عمر بكل ماعم وعمر، ومن جملة أفعاله المشكورة،

ومكرماته المشهورة أنه حضر يوماً في قبة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال، فانتهز فرصة هذه الفضيلة التي ابتكرها ، وتولى بيده كنس تلك الساحات والعراص، وغسل جدرانها، ثم أتى بمجامر الطيب فتبخرت وتضوعت، ثم فرق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر أن فاق الكرام بالإنفاق، وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نور جلي، وكرم ملي، وبسط بها الصنيعة، وفرش فيها البسط الرفيعة، وسيأتي ذكر مااعتمده من بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، وأما الملك العزيز عثمان فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال ،وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعدداً واقيه ، وكان من جملة ماشرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعدتهم، فتوفرت بذلك عدد البلد، واستغنى به عما يصل من المدد.

قال وأما محراب داود عليه السلام خارج المسجد الأقصى، فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتب السلطان له إماماً، ومؤذنين وقواماً،و هو مثابة الصالحين، ومزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدّده، ونهج لقاصديه جدده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المشاهد ، وانجاح المقاصد، واصفاء الموارد للقاصد والوارد، وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما فيهما الأنام، وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون وأجناده على بابها مخيمون، وفاوض السلطان جلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار والأتقياء الأخيار في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشافعية، ورباطاً للصلحاء الصوفية فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند باب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ماأولاه من العوارف.

فصل

قال البرق: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ماأدخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان، وكان خروجهم شبيها بالمجان، لاسيما ماتعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون*وزرع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين)(٧٦) ،فباعوا ماتهيأ لهم على البيع إخراجه رخيصاً، وأبقوا مالم يجدوا من تركه محيصاً ، وغلبوا على مافي الدور من الماعون والمذخور، أما الصناديق والأخشاب والرخام ومايجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكه، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكه، وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا، مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالستور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين، ومصوغات الذهب واللجين، مصفح بالنضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسلطان : هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم ؟ فقال : هم مايعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان، وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ماعليه من القطيعة ضرب عليه الرق بحكم الشريطة، ووفق الشريعة، فتولاهم النواب، بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفى ابن بارزان بالضمان وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير

ثمانية عشر آلفا واعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقي بعد أدائه على ماذكرناه كثير، وأما النصارى الساكنون بالقدس فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولايزعجوا، ويؤمنوا ولايخرجوا، فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسوس النصارى أربعة قوام لقمامة، فأعفاهم ولم يكلفهم الغرامة، وأقام بمدينة القدس وأعمالها منهم ألوف فشمروا وعمروا وعرّشوا وغرّسوا، فلهم منها مجان وقطوف، وكانت لأمراء الفرنج ومقدّميهم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة، مقبرة وقباب معمرة، فعفينا آثارها، و رحضنا أوضارها.

وقال في الفتح: وأمر السلطان بإغلاق كنيسة قمامة، وحرّم على النصارى زيارتها ولا إلمامه، وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها وتعفية آثارها، وتعمية نهج مزارها، وقالوا:إذا هدمت، ونبشت المقبرة وعفيت وخربت أرضها، ودمر طولها وعرضها انقطعت عنها امداد الزوار، وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار، ومهما استمرت العمارة، استمرت الزيارة، وقال أكثر الناس لافائدة في هدمها وهدها ، فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر لامايشاهد من البناء، ولاينقطع عنها قصد أجناس النصرانية ولو نسفت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صدر الإسلام أقرّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

قال : وأقام السلطان على القدس حتى تسلم مابقربها من حصون، واستباح كل ماللكفر بها من مصون، ثم عمد إلى ماجمعه ففرقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عذله على بذله، واستكثروا ماأفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله مني المستحق فالمنة له علي فيه، فإنه يخلصني من الأمانة ويطلقني من وثاقها فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها، وقيل له: لو أدخرت هذا المال للمآل، فقال: أملي قوي من

الله الكافل بنجح الآمال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانوا الوفا من المسلمين فكساهم ، وأساهم وواساهم، وأذهب أساهم، فانطلق كل منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضره وضرره.

وقال في البرق: سمعت الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السلطان في أياديه، يقول : إني توليت استيفاء قطيعة القدس، فأنفذت له ليلة سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بكرة وقال: نريد اليوم مانخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس شيء باق، فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، ففرقتها على رجال الرجاء يد النوال.

فصل

قال العماد : وللحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد

قلت: قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك أن قال: لم أزل من أول ماولي الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التباشير:

لتظفرنّ بما لم يحوه ملك
أبا المظفر حظاً خطه الأزل
دليل ذلك آراء لك اقترنت
بالحزم والعزم لم يخصص بها الأول

وفيها

قد ساد اسكندر أهل الزمان معا
في سن عشرين وامتدت له الحيل
وافى الثلاثين والاقطار أجمعها
طوعاً له وملوك الأرض والملل

قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها:

أبا المظفر فاهنأ حظ منتخب
أخرى الزمان لدين كاد يتبتر
زهدت فيما سبى الأملاك منكدرا
علماً بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفساً عن الدنيا وزخرفها
وجئت تقدم حيث الهول والخطر

قال، ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها في التباشير:

openkandil.com

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها
بني أصفر بالراعفات اللهاذم
فتسبي فلسطينا وتجبي جزائرا
وتملك من يونان أرض الأساحم
وتعنو لها الأملاك شرقا ومغربا
بذا حكمت حذاق أهل الملاحم

قال: وبعثت إليه في غزة سنة اثنتين وثمانين وهو على حمص بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها:

فيا ملكا لم يبق للدين غيره
وهت عمد الاسلام فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك في الشام طائر
فقص جناحيه بأقصى القوى قصما
خصصت بتمكين فعم العدا ردى
فإنهم يأجوج أفرغ بها ردما
إذا صفرت من آل الأصفر ساحة الـ
ـمقدّس ضاهت فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الأقصى وهمتك العلى
وعزمتك القصوى ورميتك الصمى
فما هو إلاّ أن تهم وقد أتت
فتوح كما فاض الخضم الذي طما
وإن أنت لم ترد الفرنج بوقعة
فمن ذا الذي يقوى لبنيانها هدما
وما كل حين تمكن المرء فرصة
ولا كل حال أمكنت تقتضي غنما
وليس كفتح القدس منية قادر
وما أن تلقاها سوى يوسف جزما

قال: وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه منها:

الله أكبر أرض القدس قد صفرت
من آل الاصفر ذ احين به حانوا
أسباط يوسف من مصر أتوا ولهم
من غيرتيه بها سلوى وامنان
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم
عنها وإلا عدت بيض وخرصان
حتى بنيت رتاج القدس منفرجا
ويصعد الصخرة الغراء عثمان
واستقبل الناصر المحراب يعبد من
قد تم من وعده فتح وامكان
وجاز بعض بنيه البحر تجفل من
غاراته الروم والصقلاب واللان
حتى يوحد أهل الشرك قاطبة
ويرهب القول بالثالوث رهبان
ولابن أيوب في الافرنج ملحمة
دلت عليها أساطير وحسبان
ومن أحق بملك الارض من ملك
كأنه ملك في الخلق حنان

ثم قال: وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها:

في باطن الغيب مالا تدرك الفكر
فذو البصيرة في الاحداث يعتبر
مالي أرى ملك الأفرنج في قفص
أين القواضب والعسالة السمر

والاسبتار إلى الداوية التأموا
كأنهم سد يأجوج اذا اشتجروا
والنفس مولعة عجبا بسيرتها
وفي المقادير ما تسلى به السير
ياوقعة التل ما أبقيت من عجب
جحافل لم يفت من جمعها بشر
وياضحى السبت ما للقوم قد سبتوا
تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا
وياضريح شعيب مالهم جثموا
كمدين أم لقوا ارجفا بها كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا
في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى اليهم صلاح الدين مفترسا
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفته
كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله للسلطان موعده
ونذره في كفور دينه البطر
وعاين الملك الابرنس في دمه
فمات حيا وحيى وهو يعتذر
رأى مليكا ملوك الارض تتبعه
والنجم يخدمه والشمس والقمر
إذا بدا تبهر الأعيان هيبته
يختفي وهو في الأذهان مشتهر

تقدّم الجيل في أخرى الزمان به
على صدور علا من قبلنا صدروا

obeikandi.com

أمـــا رأيتهـــم فتــوح القـــادسيـــة في
أكنـــاف لـــوبيـــة تجلى وذا عمـــر
والحق يعـــرس والطغيـــان منتحـــب
والكفـــر يطمـــس والايمان مـــزدهـــر
هـــذا المليـــك الـــذي بشرى النبـــي بـــه
في فتنـــة البغـــي لـــلاســـلام ينتصر
أنســـى مـــلاحـــم ذي القـــرنين واعترفـــت
لـــه الـــــرواة بها لم ينمـــــه اثـــــر
أعين اسكنـــدر بـــالخضر وهـــولـــــه
عـــون مـــن الله يستغنـــي بـــه الخضر
وصنـــع ذي العـــرش ابـــداع بـــلا سبـــب
فـــلا تقـــل كيـــف هـــذا الحادث الخطـــر
بينـــا سبـــا يـــاه تجلى في دمشـــق إذا
ملـــك الفـــرنـــج مـــع الاتـــراك محتجـــر
ازاءه زعماء الســـــاحلين معـــــا
مصفـــديـــن بحبـــل القهـــر قـــد أسروا
يتلـــوهـــم صلبـــوت سيـــق منتكســـا
وحـــولـــه كـــل قسيـــس لـــه زبـــر
ونحـــن في بـــذا وذا طير صحيفتـــه
بفتـــح عكـــا التـــي ســـدت بها الثغـــر
تغـــزو أســـاطيلنـــا منهـــا صقليـــة
فتـــذعـــر الـــروم والصقـــلاب والخزر
مـــن ذا يقـــول لعـــل القـــدس منفتـــح
إليـــك بـــل سفـــر يعقـــوب لـــه السفـــر
أبـــو المظفـــر ينـــويها فخـــذ سفنـــا
مـــن بـــاب عكـــا الى طـــرطـــوس تنتشر

يسبي فرنجة من أقطارها وله
مع المجوس حروب قد حها سعر
وبعض أبنائه بالقدس منتدب
وبعضهم رومة الكبرى له وطر
برايـة تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقول له الاجسام لاوزر
قالوا أطلت مديحا فيه قلت كما
بدأت فالصب للمحبوب مدّكر

وأما القصائد التي له فمنها التائية له، وقد تقدم ذكرها، ومنها القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها

تصاريف دهر أعربت لمن اهتدى
وبسطه أمر أغربت من تمردا
لسرعة فتح القدس سر مغيب
وفي صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كجبال أبرمت لأسارنا
فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا
فبعناهم بالرخص جهرا على الندا
وجروا جيوشا كالسيول على الصوا
فاضت غثاء في البطاح ممددا
وقالوا ملوك الأرض طوع قيادنا
إذا الكل منهم في القيود معبدا
وقد أقطع الكند العراق موقعا
فأودع سجنا وسط جلق مؤصدا
وأقسم أن يسقي بدجلة خيله
فما ورد الاردنّ إلا مصفدا

فكم واثق خجلان قهقه خصمه
وكم سائق عجلان قهقر مقعدا
أتى الكند من اسبان يحمي قمامة
فكان تقضى ملكه قبل يبتدى
فما عقد الرايات إلا محللا
ولا حلل الرايات إلا معقدا
ووقعة يوم التل إذ قبضت به
جبابرة الافرنج حيرى وشردا
عليهم من البلوى سرادق ذلة
ومن ذل ماتت نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديوى يلقي سلاحه
وينساق مابين السبايا ملهدا
يباعون أسرابا شرائح أحبل
كشكة عصفور من الريش جردا
فتلقى نصارى جلق في مأتم
يسرونها إلا شجى وتنهدا
ألم تر للسلطان صدق نذره
دم الغادر الابرنس فاقتيد اربدا
وباشر بالقتل وسط خبائه
وعاينه الكند المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمص الأرض مهربا
فأدركه الموت المفاجىء مكمدا
وماطرق الاسماع من عهد آدم
كملحمة التل التي ثلت العدا
آتوا واديا مازال ينفي خبائثا
ويصفي بعقبى الدار طائفة الهدى

بـه جثمـت أصحــاب ليكـة وهـي في
ذراه ذا فيـــه شعيـــب تـــأيـــدا
أرى الله فيـــه معجـز النصر مخلصـــا
لأمــر صـلاح الـــديــن في النـاس مخلـدا
واعــدى جنـود الــرعب تــردي عـداتــه
وسلـــــم جميـــــع المسلمين مجنـــدا
ومـن عجـب خمسـون ألــف مقـاتـل
سبتهـم جيـــوش ليـس فيهــا مـــن ارتـدى

وللرشيد بدر النابلسي:
هـذا الــذي كـانــت الآمـال تنتظــر
فليـــوف لله أقـــــوام بها نـــــذروا
بمثـــل ذا الفتـــح لا والله مــــا حكيـــت
في ســالـــف الــدهــــر أخبــار ولا سير
حين بـــــه حــــان هلــــك المشركين فيــا
لله طيـــب العشـــايـــا منــــه والبكـــــر
الآن قـــرت جنـــوب في مضـــاجعهـــا
ونـــام مـــن لم يــزل حـــافـــالــه السهـــر
يـا بهجـة القـدس إذ أضحى بـه علـم الـــ
ـــــلاسلام مـــن بعـــد طـيّ وهـــو منتشر
يـــانـــور مسجـده الأقصـــى وقـد وقعـــت
بعـــد الصليـــب بـــه الآيـــات والســـور
شتـــان مـــا بين نـــاقـــوس يـــدان بـــه
وبين ذي منطـــق يصغـــي لـــه الحجـــر
الله أكبر صــــــوت تقشعـــــــر لــــــه
شـــم الـــذرى وتكـــاد الأرض تنفطـــر

يـا مـالـك الأرض مهـدهـا فما أحـد
سـواك مـن قـائم للمهـد ينتظـر
مـا اخضر هـذا الطراز الساحلي ثمـرا
الا لتعلـو بـه أعـلامـك الصفـر
أضحى بنو الأصفـر الانكـاس موعظة
فيهـا لأعـدائك الآيـات والنـذر
صاروا حـديثا وكـانـوا قبـل حـادثـة
على الـورى يتقيهـا البـدو والحضر
سلبتهـم دولـة الـدنيـا وعيشتهـا
حتـى لقـد ضجـرت مـن وفـدهـم سقـر
هـذا الـذي سلـب الأفـرنـج دولتهـم
وملكهـم يـا ملـوك الارض فـاعتبروا
مـراكـز مـا اختطـاهـا الخوف مـذ مـائة
عـامـا ولا ريـع أهلـوهـا ولا ذعـروا
ولا أصرح بـأسماء البـلاد فقـد
أسهبـت والقـائل المنطيـق يختصر
يغنيـك مجمـل قـولي عـن مفصلـة
في لفظـة البحـر معنـى تحتـه الـدرر

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى:

الـمم بـدار النـاصر الملـك الـذي
في كفـه للجـود سبعـة أبحـر
فـإذا مـررت بملكـه وفتـوحـه
فـاسخـر بما يـروى عـن الاسكنـدر
وإذا بصرت بجـاشـه وجيـوشـه
فـاحـث التراب على ذؤابـة سنجـر

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

كسرت على كسرى لعدلك دولة
قصرت مهابتها تطاول قيصر
أهدى صلاح الدين للاسلام اذ
أردى قبيل الكفر مالم يكفر
رب الملاحم لم يؤرخ مثلها
العلماء قدما في قديم الاعصر
خلعت عليه خلعة الملك التي
زيدت بهاء بالطراز الاخضر
راياته صفر يردن وتنثني
حمرا تمج نجيع آل الأصفر
لم لم تدن شوس الملوك له وقد
ملك السواحل في ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدّس عنوة
من كان ذي نجس بكل مطهر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ
ـبيت المقدس هول يوم المحشر
ورددت دين الله بعد قطوبه
بالمسجد الأقصى بوجه مسفر
واعدت ما أبداه قبلك فاتحا
عمر فأنت شريكه في المتجر
حتى جمعت لمعشر الاسلام بيـ
ـن الصخرة العظمى وبين المشعر
فلصخرة البيت المقدس كفؤها الـ
ـحجر المفضل عند أفضل معشر
فكأنه انسان عين صورة
يلقاك اسوده بمعنى أنور

فصل

في حصار صور وفتح هونين وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السلطان مازال مقيما بظاهر القدس يحقق الآمال، ويفرق الأموال، حتى وردت كتب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت. وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صوب عكا وسبقه إليها الأفضل وتقي الدين، وودع السلطان ولده العزيز ورده إلى مصر، فكان آخر عهده به، واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عكا مستهل رمضان فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النهر، ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواشيره وأحكم في التعمير تدبيره، واستظهر بتكثير العدد والعدد، واغتنم اشتغال السلطان بفتح القدس، فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت الأمداد، وكثرت العدد وآلات الجهاد، ورتبت المنجنيقات، ثم حول السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه، ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الافضل والعادل وتقي الدين فحاصروهم وضايقوهم، ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظاهر غازي ولد السلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصري، وكان بعكا فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وحراريق، وفيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلما جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم براً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر واهنأ ورد وصدر، إذ ملك الفرنج خمسة من شواني

المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفاسي، وألقى جماعة أنفسهم في البحر من ناج وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور إلى السحر، ثم غلبهم النوم فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد انثلموا، وأتاهم من الأمر مالم يعلموا، ونفذ السلطان إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لقلتها أن يستولي عليها عبدة الطاغوت، فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم، ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على ا لكافرين ، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيس فسلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه، وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن المركيس بعد في الحياة، فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فاشاروا على السطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال، وتقل الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والاتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى،و حسام الدين طمان، وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولاتعجلوا فاظهروا الموافقة وفي أنفسهم مافيها، فلم يصدقوا القتال، وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت، فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل. فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو، ورحل في آخر شوّال وهو أوّل يوم من كانون الأول. وسار تقي الدين إلى دمشق على طريق هونين. واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين، ورحل السلطان إلى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لأنه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب

المثل، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الاثقال والاجمال في اسبوع، وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل، وخيم السلطان عند التل، وسار العادل إلى مصر، والظاهر إلى حلب وبدر الدين دلدرم الياروقي إلى بلاده.

قال: وفي مدّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاولي أنه استشهد في عفر بلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جملة أعمال طبرية والغور حصنا صفد وكوكب، وكان في صفد جمهرة الداوية، وفي كوكب جمهرة الاسبتارية، فاحتاج السلطان في فتحها إلى المطاولة، فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلتي، ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محموداً، فأقام في حصن عفربلا، وهو قريب من حصن كوكب، ونغص على المقيمن فيها المطعم والمشرب، وضيق عليهم المذهب، إلى أن دخل الشتاء فاختلت الحراسة، واعتلت السياسة، فلما كانت ليلة آخر شوال، وكانت ليلة باردة ماطرة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا، فغلبهم النعاس فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب، وكان هذا الأمير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجداً، وقد جعل منزله مسجداً، فجمع بين التهجد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتم السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه.

وتقدّم إلى صارم الدين قايماز النجمي أن يرابط كوكب في خمسمائة فارس، ففعل ولم يزل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هونين والسلطان محاصر صور، وكان لما فتح تبنين قد

امتنعت عليه هونين، فوكل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان، وجاء خبرها إلى السلطان وهو على صور، فنفذ الأمير بدر الدين دلدرم، ففتحتها وخرج الفرنج منها سالمين آمنين، وكان بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن وشقيف أرنون، وأقام السلطان بظاهر عكا ناظراً في أمور رعيته، ثم دخلها وسكن بالقلعة وسكن الأفضل برج الداوية،وولى عكا عز الدين جرديك، ووقف دار الاسبتار نصفين نصفاً على الفقهاء، ونصفاً على الصوفية، ووقف دار الاسقف بيمارستانا، ووقف على كل من ذلك كفايته، وأظهر به عنايته، وسلم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في ذلك مصيب.

فصل

في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدوم الرسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنىء السلطان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدره عليه من نجح الوسيلة، وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فما منهم إلّا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويخطب بصداقته، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الري، ورسول المستولي على ممالك همذان، وأذربيجان، واران، فما من يوم يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويتصل به رسول.

وذكر العماد في البرق أنه وصل إلى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل أرسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان، ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لايكون في بحر سلطاننا جدولاً ، وكان السلطان مذهب المذهب، ظاهر المحفل والموكب، قد خصه الله بالصدر الأرحب والنصر الأغلب، عزمه إلى الجهاد مصروف، وخلقه بالمعروف معروف، وهمه بالسماح مشغوف، مايفتح بالسيف في البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف في الجهاد، وللخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للآخرة دنياه، فلاجرم ختم الله بالحسنى عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً، وأجدى فضلاً، وأعم جدوى، وأكمل جهدا في الجهاد، واملك جلدا على الجلاد، فإنه

باشر بنفسه الحرب، ومارس الصعب، وقذف بالحق حين حققه على الباطل فأزهقه، ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يجف لورده لبد، ولم ينضب من ورده عد ولم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيظ والقر مض الحر وعض البرد، بحر وجهه الكريم، وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم، وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل، إنما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الإسلام وشد ظهوره، وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وصف أسيافه:

ماضيات على الدوام دوامي ... هي في النصر نجدة الاسلام

في يمين السلطان ان جردتها ... أشبهها صواعق في غمام

تنثر الهام كالحروف فما أشـ ... ـبه هذي السيوف بالاقلام

في محاريب حربه البيض صلت ... وركوع الظبى سجود الهام

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: «ما ادخل بينكم إلا كدخول المرود في الاجفان، يرد إليها ماذهب منها من النور والغمض، أو كالنسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض».

قال العماد: ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت، وسعايات في السلطان شعثت، وذلك في شوّال ونحن على حصار صور، وسبب ذلك أنه لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين أمرني السلطان بإفشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون

مبشر دار الخلافة بما أنزلـه الله علينا من الرحمة والـرأفة إلا من هو عنـدنا أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنـون الفضائل، وأعرف بأداء الـرسائل فلا يـرفع العظيم الا بالعظيـم الرفيع، فـإن الشريف يتضع شرفه بمقـارنة الوضيـع، فقال هـذه نصرة مبتكرة، وموهبـة مبشرة، بدرت ونـدرت فنحن نعجـل بها بشيراً، ونؤخـر لـلاجـلال كما ذكر ت سفيراً وكـان في الخدمـة شاب بغـدادي من الأجناد، وقـد هاجر لـلاسترفاد، وتـوجه بعد وصـوله، وتنبـه بعـد خموله، فسـأل في البشـارة إلى بغـداذ، وزعـم أنه يـداوم إليهـا الاغذاذ، وشفع له جماعة من الأكابـر، حتى حظي بأشرف البشائر، فقلت: هذا لايحصل لـه وقع، ولايصل إليه نفع، والواجـب أن يسير في مثل هذا الخطير خطير، ويسفـر في هـذه النصرة الكبرى كبير، ثـم سـار المنـدوب وشغلـت عن ارسـال سـواه الفتـوح والحروب، ولما فتح البيـت المقـدس أرسـل ببشارتـه نجـاب ونفذ بها كتـاب، ووصـل البشير الجندي فحقـروه وماوقـروه، فإنه كان عنـدهم منظوراً بعين الاحتقار، فنظـروه بتلك العين ، وحبـوه بما يليق بـه من الـرقـة والعين، ونقم على السلطـان إرسال مثلـه، وتسمج المنـدوب بكلام أخـذ عليه، وبـدرت منه أحـاديث نسبـت إليه، وقال في سكره وحالـة نكره مانعرض عن ذكره، فخيـل وموّه، وتنكر وتكره وظـن أن لكلامـه أصلاً وللفظـه منا وصـل، وانهيت إلى العـرض الأشرف مقالاته، وعلمت جهـالاته، وتجني على السلطان بإرسالـه، وطرق إلى هداه ماانكروه مـن مقال المذكور وضلالـه، ووجد الاعداء حينئذ إلى السعـاية طريقـاً ، وطلبوا الشمـل استسعادة بالخدمـة تفريقـاً، واختلقوا أضـاليل، ولفقوا أباطيل، وقالوا هذا يزعم أنـه يقلب الدولة، ويغلب الصولة، وأنه ينعـت بـالملك النـاصر، نعـت الإمـام النـاصر، ويـدل بماله مـن القـوة والعساكر، فـاشفق الـديوان العـزيز على السلطـان من هـذه، وبرز الامـر المطاع بارسال أخي وانفاذه، وقالوا: هـذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا في كشـف سر الأمـر بـالمراد، فإن أخـاه هنـاك مطلـع على الاسرار، وهـو منتظـم في سلك الاوليـاء الأبرار، وعـوّل عليه الـديوان في السفـارة ، ورد

معه جواب البشارة، وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة، فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوب نادباً عادياً، جاحداً للنعمة شاكياً ، وقال: أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب، ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات، فقلت له: اسكت واصمت، وقلت للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الديوان، فإن اظهار سر العتب لك من غاية الإحسان، فقال: نعم ماقلت، ولما قرب أخي أصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم لجلالة قدومه بإجلاله، وتلقاه الملوك الحاضرون: العادل.والمظفر.والافضل.والظاهر،ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريبه بأنسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارع الكفار، ثم نزل وأنزله بالقرب، ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدى الأمانة في مشافهته، ووجه مقاصده في مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه وكانت في الكتب غلطة عدت من الكاتب غلطة، وخيلت سقطه، وجلبت سخطه، وقال: إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً وأرفق، وأوفى منها فضلاً وأوفق، معاذ الله أن يحبط عملي، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف،و قال : أماما تمحله الأعداء، وعدا به المتمحلون، فما عرف مني إلا الاعتراف بالعارفة، وذكر السلطان أياديه السالفة في الفتوحات، وإقامة الدعوة العباسية بمصر واليمن، وإزالة الادعية وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس، قال: وأما النعت الذي أفكر ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل مايشرّفني به أمير المؤمنين من السمة فإنه اسمى لي من الذي هو اسمي وأشرف، وأرفع وأعرف، وماعزمي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقطع دابر المنافقين والمشركين، ثم ندب مع أخي

من سار في خدمته لزيارة القدس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي النفس، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى، ومضى مامضى، وكان جماعة من الملوك والأمراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل في حقه وأرادوا أن يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولفظ مصيب.

قلت: ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زيادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزة، يقول فيه: «لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به، والمنافسة فيه، لما جوهر بالعتاب، ولارفع دونه الحجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله، ويدمل الجرح على اعتلاله، وقد ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليرعيها سمعه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولامؤتم بالمراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التنائي والاصلاح، فان إيجار الدواء المقر لايتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية»

ثم ذكر من تلك الأمور: «أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب، لجأ إلى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرّبه إليه» ثم قال: «وإن مما أضحك بثغر الاستعبار ماانتهى عن العوام وأشباه الانعام وطغام الشام، من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاف كل كاذب.

ومنها: ماجرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج، وارهاج تلك الفجاج، والاقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السيرة القاسطة، واحياء بدع القرامطة،

ومانفر منه كل طبع ، ومجه كل سمع، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يقرّض سوابقه وأواخيه.

ومنها: ماقضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ماأوجب التلقب الذي استأثر به أمير المؤمنين»

ثم قال: «وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الديار، وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام، الذي يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد ومراسلتهم ، ومهاداتهم، وقرع أسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم، وفل عزائمهم، وهم لايعرفون إلا أنهم رعية للعراق، وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف»

ثما قال في آخر الكتاب: «وهذا كله لاأقوله انكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده، والمربى على من سلف من صنائع الدولة، وعلى من يأتي من بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى، واستكفي فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوز له بسعادته أن يهجن مساعيه الغرّ المحجله، ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة»

ثم قال: «فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة، فينـزون عليه بطراً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم اظفاراً، وظفرا،

كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سجلوق، (وقروناً بين ذلك كثيراً)[٧٧] ،فمن الذي زلزلوه فثبت، ومن الذي حصدوه فنبت، وأي نار أوقدوها فما خبت » .

ثم قال في آخره: «اللهم قد بلغت، وللرأي الصلاحي مايزيد علوّه إن شاء الله تعالى».

وذكر ابن القادسي أن الجندي الذي أرسله صلاح الدين بالبشارة يعرف بالرشيد بن البوشنجي، قال: وكان صبياً كثير الادبار، مشمراً في دروب بغداد، ثم توجه إلى الشام هارباً من الفقر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الدين بالانكار عليه، وقيل له: أما كان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الديوان، فاعتذر صلاح الدين، ووصلت كتبه بالاعتذار، وقبل عذره، وأما ابن البوشنجي فإنه حين وصوله إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الدين، فأنكر عليه، فلما مضى الاسبوع جاءته نشابة فذبحته.

فصل

في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين

فيها قتل الأمير شمس الدين بن المقدّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها، قال العماد: وكان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنا موسم الحج قال الموفقون: نحرم من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلة فتح بيت المقدس في هذا العام، فالحج والجهاد ركنا الاسلام، فاجتمع جمع جم من أهل ديار بكر والجزيرة والشام، وسار بهم الأمير شمس الدين بن المقدم شيخ أمراء الاسلام الكرام، فوّدعه السلطان على كره من مفارقته، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته، فقال مامعناه: إن العمر قد فرغ والأمر قد بلغ والشيب قد أنذر، والفرض قد أعذر فاغتنم فرصة الإمكان قبل أن يتعذر، فمضى والسعادة تقوده، والشهادة تروده، حتى وصل إلى عرفات، وماعرف الآفات، وشاع وصوله، وذاع قفوله، وضربت طبوله وسالت سيوله، وجالت خيوله، وضربت خيامه، وخفقت أعلامه، فلما أصبحوا نقرت كالعادة نقاراته، ونعرت بوقاته، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقي، فركب إليه في أحزابه فأوقع به وبأصحابه وأبلاهم بجراحه ونهابه، وجرى حكم الله الذي كان الطبل أوكد اسبابه، وقتل جماعة من حاج الشام وجرحوا، وهتكت أستارهم وافتضحوا، ونقل أمير الحاج طاشتكين شمس الدين ابن المقدم إلى خيمته، وهو مجروح وفيه روح، وحمله معه إلى منى فقضى ودفن بالمعلى، وتم ذلك بقضاء الله وقدره في تقلب حوادث الدهر وغيره، وارتاع أمير الحاج بما اجترمه، وكيف لم يراقب الله وأحل حرمه، وكيف عدا على الحاج العائذ بالله وسفك دمه، فكتب محضراً على مااقترحه بعذره فيما اجترحه، وألزم اعيان الحاج من سائر البلاد بوضع خطوطهم على ماعينه من المراد، فكتبوا مكرهين غير مشتهين، وكان عذره أنه أنكر عليه ضرب الطبل فأبى، فلما انتهت الحالة إلى الخليفة أنكرها انكاراً

شديداً، ونسبها إلى طيش طاشتكين، ولم يجد له رأياً سديداً فلا جرم اتضع عنده قدره، واتضح له وزره، ووهى أمره، وادخرهاله حتى نكبه بها بعد سنين، وحبسه بها وأطال سجنه ، ثم عفا عنه بعد مدّة مديدة، وشدّة شديدة، وولاه حرب بلاد خوزستان وخراجها، وولى امارة الحاج غيره، ولما وصل إلى السلطان خبر استشهاد ابن المقدم وجماعته، لامه على ترك الحزم واضاعته، فاحتسبه عند الله غازياً شهيداً، ساعياً إلى الجنة بقدمه سعيداً، وأقام ابنه عز الدين ابراهيم في بلاده، مقامه، وأقر عليه انعامه.

وقال محمد بن القادسي في تاريخه، ونقلته من خطه: أراد أمير الحاج بالشام وهو ابن المقدم أن يرفع علماً على الجبل بالموقف فمنعه أمير الحاج طاشتكين، وجرت بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة، بين حاج العراق وحاج الشام، ونهب البعض البعض، وجرت جراحات، فجرح ابن المقدم ولم يغير العادة في ذلك، ومات ابن المقدم بمنى في اليوم الثاني، ووصلت النجابة من مكة فأخبروا بما جرى من أصحاب ابن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرىء ذلك بجامع القصر الشريف.

قال: وفي ثاني شوّال من هذه السنة توفي أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعر، وكان كاتبا بديوان المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيس الرؤساء وأضر في آخر عمره، ومولده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائه.

قال: وفي :خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن فتيان ابن مطر المعروف بابن المنى، وكان فقيها زاهداً صالحاً عالماً، مولده سنة احدى وخمسمائة، وتفقه عليه جماعة من أئمة الحنابلة، كالحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور وأخيه ابراهيم، والشيخ الموفق عبد الله

ابن أحمد بن قدامـة، ومحمد بن خلف بن راجح، والنـاصح عبد الر حمن ابن نجـم بن عبد الـوهاب، وعبد الـرزاق بن الشيخ عبـد القادر الجيلي وغيرهم.

obeikandl.com

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال العماد: خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الأوسط من المحرم، فحاصرها وصابرها أياماً فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها، ورآها تحتاج إلى طول مصابرة ومرابطة، ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه، وإنما كان في خواصه، فوكل بها قايماز النجمي، ووكل بصفد طغرل الجاندار، كل واحد منهما في خمسمائة، وسير إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك

قال: ثم إن السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين، من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين محمد بن قزل أرسلان، وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل، وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر، وقدم رسولهم في ذلك، فتمت الوصلة بينهما.

قال: وأوّل من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج أرسلان بالروم، وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلى والديباج والوشي، في يديه زنود، وخواتم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عقودها درة يتيمة، وفي يده عمود من العسجد، وكل عدّته تبرها مجوهر، وكان إذا شاهده السلطان تبسم وعامله بخلعه، وقال: هذا سافر بنضاره لينظر، وبديناره ليبصر.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما دخلت سنة أربع وثمانين، رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيىء أمرها ، فاشتغل بذلك، ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل

المحرم، وكان سبب بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل إليهم قوة أو حماة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غرّتهم وكبسوهم بعفربلا، وقتلوا مقدّمهم، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا، ولقي في طريقه شدّة من الثلج والبرد، فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدّة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين، وكانت وقعة ابن المقدم، وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشكتين على ضرب الطبول والدبدبة، فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدّم ، وكان من أكابر أمراء الشام، وكان كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة، ثم حمل إلى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم، ودفن بالمعلى، وهذا من أتم السعادات، وبلغ ذلك السلطان قدّس الله روحه فشق عليه.

قال: ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته، والجمع بين زيارة النبي ﷺ وزيارة ابراهيم عليهما الصلاة السلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولي فظن أني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده، وبالغ في الاكرام والاحترام، ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج إليّ بعض خواصه وأبلغني تقدّمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل، وانصرفت إلى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب، ورحل رحمه الله لأنه علم أن هذا الحصن لايؤخذ إلا بجمع العساكر عليه، وكان حصنا قوياً، وفيه رجال شداد من بقايا السيف، وميزة عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخوله إليها في سادس

ربيع الأوّل ، وفي ذلك اليوم اتفق دخولي إلى دمشق عائداً من القدس، فأقام رحمه الله في دمشق خمسة أيام، وكان له غائبا عنها أربعة عشر شهرا.

قال: وفي ذلك اليوم الخامس بلغه خبر الفرنج أنهم قصدوا جبيل، واغتالوها فخرج منزعجا ساعة بلوغ الخبر، وكان قد سير إلى العساكر ليستدعيها من سائر الجوانب، وسار يطلب جبيل، فلما عرف الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك، وكان بلغه وصول عماد الدين وعسكر الموصل ومظفر الدين إلى حلب قاصدين الخدمة للغزاة، فسار نحو حصن الأكراد في طلب الساحل الفوقاني ، ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل على تل قبالة حصن الأكراد ، ثم سير إلى الملك الظاهر ولده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالة انطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا وسارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بخدمة السلطان في هذه المنزلة، ووصلت إليه رحمه الله في هذه المنزلة فإنه كان قد سير إليّ إلى دمشق يقول تلحقنا نحو حمص، فخرجت على عزم المسير الى الموصل متجهزاً لذلك، فوصلت إليه امتثالاً لأمره، فلما حضرت عنده فرح بي وأكرمني ، وكنت قد جمعت له كتاباًفي الجهاد بدمشق مدّة مقامي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدّمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته، ومازلت أطلب دستوراً في كل وقت وهو يدافعني عن ذلك ويستدعيني للحضور في خدمته في كل وقت، ويبلغني على ألسنة الحاضرين ثناؤه عليّ وذكره إياي بالجميل ، فأقام في منزلته تلك شهر ربيع الآخر أجمع، وصعد في أثنائه الى حصن الأكراد وحاصره يوماً يجسه به، فما رأى الوقت يحتمل حصاره ، واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغار على بلد طرابلس في هذا الشهر دفعتين ، ودخل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقوية للعساكر بالغنائم، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر إنّا داخلون إلى الساحل ، وهو قليل الأزواد، وهو محيط بنا في بلاده من سائر الجوانب فاحملوا زاد شهر ، ثم سير إليّ مع الفقيه عيسى، وكشف لي أنه

- ٨٦٢٧ -

ليس في عـزمه أن يمكنني من العـود إلى بلادي، وكان الله تعالى قـد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد فأجبته إلى ذلك وخدمته من تاريـخ مستهل جمادى الأولى، وهـو يوم دخولـه الساحـل الأعلى، وجميع ماحكيتـه من قبل إنما هو روايتـي عمن أثق بـه ممن شاهدوه ، ومـن هذا التاريـخ ماأسطـر إلاّ ماشـاهدتـه ، أوأخبرني به مـن أثق بـه خبراً يقارب العيان، والله الموفق.

فصل

قال العماد: كان جماعة من أهل الحزم وأولي العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفيه آثارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا نأمن عود الفرنج إليها، وتملكها وأن تبنى قلعة القيمون، فكاد يجيب فقيل له هذه مدينة كبيرة، وعمارة كثيرة، وأشير عليه بتبقيتها وأن تعمر وتحصن، فولى أمر عمارتها وتدبيرها الأمير بهاء الدين قراقوش،و هو الذي أدار السور على مصر والقاهرة، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب في تلك العمارة، فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عمارة عكا، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أساتيذ العمل وأنفاره ودوابه وأبقاره.

قال: ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة في الربيع، وأنه يجتمع على حمص بالجميع، وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شرقيها، وتجنب عقبه فيق لاستصعاب رقيها، ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء، فقد كانوا متعطشين إلى رؤيته ومتشوقين إلى طلعته، لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام، فكسر فيها الكفر ونصر الإسلام وفتح فيها الأرض المقدسة وأشباهها من البلاد التي كانت بأوضار الكفر منجسه، فأصبحت بالإيمان مؤسسه، فلما استقر قر اره أمر بانشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العدل، وبحضرته القضاة والعلماء من أهل الفضل.

قال: وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة ، وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولاية الديوان، وكان مع الصفي بن القابض، فبقيت معه الخزانة

وحدها، وكان الصفي قدبنى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بالقلعة، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرها وتحسينها، وظن أنها تقع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسنها، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التي أوجبت عزله عن الديوان، وقال مايصنع بالدار من يتوقع الموت، وماخلقنا إلا للعبادة والسعي للسعادة، وماجئنا دمشق لنقيم، ومانروم أن لانريم.

قال:ثم هم بالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان مقيماً بجوسق ابن الفراش بالشرف الأعلى في بستانه، فاستضاء برأيه فيما يريد فعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل.

قلت: وما أحسن ماقال ابن الذروي في الآراء الفاضلية من قصيدة مدحه بها:

لرأيك هذا النصر للدين ينتمي
فلا ينتحله كل عضب ولهذم

وإن كان فيه للأسنة والظبى
مساعدة فالفضل للمتقدّم

تشير على الاسلام منك فراسة
لها حزم طب واحتراز منجم

وتحميه ألفاظ لديك كأنها
قواطع بترأو نوافذ أسهم

ألا حبذا فتح نشرت لواءه
وقلت لخيل الله ياخيل أقدمي

وقمت وقد نام الأنام مناجيا
بمولاي نجّ المسلمين وسلم

فصل

في دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح مايسره الله تعالى من بلاده

قال العماد: ثم رحل السلطان فسلك في جبل يبوس إلى عين الجر إلى الدلهمية على البقاع واتى بعلبك، وخيم بمرج عدّوسة، ثم رحل على سمت اللبوة ثم أتى الزراعة، ووصل الخبر بوصول عماد الدين صاحب سنجار في جموعه وجنوده ونزوله على قدس من عمل حمص على نهر العاصي، ولما تراآى موكبه لموكب السلطان تقابل القمران وتقارن النيران، واجتمع السعدان وسعد الجمعان، فخيم السلطان عند مخيمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثم رتب السلطان يوماً لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا، وكان أيام المشمش، وقد وصل من دمشق فأفرح قدومه، وطلعت في ابراج الاطباق نجومه، كأنها من التبر مصوغه، وبالورس مصبوغه، صفركأنها ثمر الرايات الناصرية، حلا منظرا وذوقاً، ولو نظم جوهره لكان طوقاً كأنما هو خرط من الصندل، وخلط بالمندل، وجمد من الثلج والعسل، وتصاحب هو والسلطان في الركوب والجلوس والتناجي بما في النفوس، وتكرررت المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقصده، واتفقوا على عرقا وعقرها والنزول بعقرها، وانها إذا ملكت ملكت طرابلس فأقاموا بقدس إلى آخر الشهر حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العربان، ثم سار السلطان أوّل ربيع الآخر، وخيم بقرب حصن الأكراد على البقيعة، ثم شن الاغارة على نواحي الحصن وصافيتا والعريمة وتلك الحصون، فاستخرج مافيها من المخزون، وفتح حصن يحمور وسامه الدمور، ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر الشهر، فوصل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعة معه فأشار على السلطان بقصدها، وتكفل بفتحها، وفتح اللاذقية، وتلك الحصون والمعاقل الشمالية، وكانت تلك البلاد قد سلمها إليه ابرنس أنطاكية

وعـوّل عليه فيهـا، وقال: إن الاشتغـال بطرابلـس مع احتراسهـا يذهـب الزمان، ويفوّت الامكان، والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منـك بالنعيم، فأصغى السلطان إلى قـوله، وأصفى له ورد طـوله، وكـان قـد وصل إليـه مقـدمو جبـل بهراء، فـوفر لهم رواتبـه وأجرى، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

obeikandl.com

فصل

في فتح انطرطوس

قال العماد: وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، فسرنا في أجام مؤتشبه، وآكام معشبه، وحزون وسهول وشعاب وتلول، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل، حتى وصلنا إلى انطرطوس سادس الشهر فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين هما لأنطرطوس كالقلعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ماقدروا عليه، فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نقبه من أساسه، وألقاه على أم راسه وعجل دماره، ورمى في البحر أحجاره، وملك جميع مافيه، وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدّمهم الذي أسر يوم حطين، وأطلق لما سلم مااشترط عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البرج وقوّاه بآلات الحصر، فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد واخفائه.

وقال القاضي ابن شدّاد: دخل السلطان الساحل على تعبية لقاء العدوّ، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أوّلاً ومقدّمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الآخر، ومقدّمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار على الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدوّ، ثم رحل في صبيحة السبت. ونزل على العريمة، فلم يقابلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد ووصل إلى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتم

نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وغنم العسكر جميع من بها وما بها، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب والنهب، ووفى بقوله رحمه الله فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطرطوس إن شاء الله تعالى. وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً وحضرنا عنده للهنا بما جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه، وأخذ من كان فيه، وأمر السلطان باخراب سور البلد، وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد، فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بما هو أهم منه، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه، وخرّب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فانحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخربها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جبلة، وعرض له ولده الظاهر في اثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

فصل

في فتح جبلة وغيره.

قال القاضي ابن شدّاد: وكان وصول السلطان إلى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، ومااستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية.

وقال العماد: بعد فتح انطرطوس وصل إلينا رجال حماة، فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقيه، وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل، وهناك للفرنج الاسبتار حصن يقال له المرقب، مأهول معمور ولاطريق له إلا تحت تله، واتفق أن طاغية صقلية لما أشجاه ماتم على الفرنج في الساحل جهز أسطولاً يشتمل من الشواني على ستين قطعة يحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه، وقدّم عليها طاغية يقال له المرغريط، فوصل وماضر ولا نفع، فإن فرنج الساحل مارفعوا به رأساً وتضجروا منه وكان في عشرة آلاف رجل يحتاجون إلى ميرة وكلف كبيرة، فسار إلى صور، ثم رجع إلى طرابلس، وتردد في البحر وتلدّد وأبلس، واضطرب أشهراً لايظهر له رأي ولايرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل إلى جبلة جاء بالشواني وصفها على موازاة الطريق، ومباراة المضيق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاني إلى هناك وتصفيفها وتكثير ستائرها، وأجلس الرماة من ورائها فمازال الأمر على ذلك والرماة ترمي وتصمي،

وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خفت الأثقال، وعبرت الأحمال، وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة، وجازوا على مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها الناس، فخيم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الرحيل فاعترضهم نهر عريض عميق مافيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر وفيه قنطرة واحدة فتنكبها السلطان بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين، وتزاحمت الاثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأثقال على بلدة وهي بلدة كاسمها بلدة وهي بليدة من غربي النهر على شاطىء البحر، وجانباها الآخران بخندق فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلها، وتفرق شملها، وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى على جبلة فتسلمها المسلمون في الوقت وذلك أن قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقرن بالنجح للمسلمين أملها، فلما وصلوها أعلى الأعلام الناصرية على سورها، وخلص المسلمون بها من مساكنة الكفرة، وتحصن الفرنج بحصنيها، واحتموا بقلعتها، فما زال قاضي جبلة يخوّفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردوا من انطاكية رهائن جبلة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدمين، حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التي عنده ففك بها رهائنه، وتولى قاضي جبلة الأمر فاستخرج ذخائر الكفر ودفائنه، واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوّة، وجاء مقدمو الجبل سامعين مطيعين، وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن يعرف ببكسرائيل، وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلمه السلطان أيضاً منهم، ثم سلم جبلة إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبجل قاضي جبلة وشرفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقفه، وصرفه في املاك آبائه وحكمه في ولاية حكمه وقضائه.

فصل

في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد :وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مسوّر، وله مينا مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنزل السلطان رحمه الله يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه عشرين ذراعاً عرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد، فلما رأى عدوّ الله ماحل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الأمان لايبخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم، ورقى عليهم العلم الإسلامي المنصور في بقية يوم السبت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى.

وقال العماد:رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فبات بالقرب منها، وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ

أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات، كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ، فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالامان، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدّة وذخيره وأسلحة وميره، وخيل ودواب كثيرة، وامنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية، ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه وأمنه بعد ماأخافه.

قال: ورأيته بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسقة المغاني ومتناسبة المعاني في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها محرّمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة وصفوفها عالية وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مضية، وارجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، واذهب نضارتها، ووقع من عدّة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن، ومحوا سنا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة، باجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعه، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهي متوازية الزوايا متوازنة البنايا، قد تخيرت بها أشباح الأشباه، وصوّرت فيها أمواج الأمواه، وزينت لأخوان الشيطان، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان،و لما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوّهوا أعلامها، وجروا لثامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فافتقرت وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلى عن البلد بفتحه

البؤس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس،، وهي متشوهة متشعثه متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة.

قال: ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت، ولكنها زاد سروري بأنها عادت للاسلام مرابع، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحبالتها بعدما تبدلت رشدها من ضلالتها لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت، ورغب في أعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن، ولما أراد السلطان الرحيل دخل المدينة ورد إلى سكانها السكينة، ودار خلال ديارها، وخرق أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها.

وفي كتاب عمادي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال: «وهذه اللاذقية مدينة واسعة، وخطة جامعة، معاقلها لاترام، واعلاقها لاتستام، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها، وأزيدها أعمالاً وضياعاً وأزينها، ومافي البحر مثل ميناها، ولا للمراكب الواردة مثل مرساها، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس، فعادت بالاسلام دار نعيم»

قال: وكانت شواني صقلية قد قابلت في البحر اللاذقية، طمعاً في امتناعها، فلما خابت خبت نارها، وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلها حنقاً عليهم كيف سلموا البلدة وسمحوا ببذلها، فكان ذلك مقتضياً لبقاء ساكنيها بالجزية تؤديها، ولما وقف السلطان على شاطىء البحر بعساكره، طلب مقدم تلك الشواني أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فأمنه فصعد وعفر وكفر، وتروى ساعة وتفكر، وقال مامعناه :أنت سلطان عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عدلك وذاع فضلك، وقهر

سلطـانك، وظهـر احسـانك، فلـو مننـت على هذه الطـائفـة الساحليـة الخائفـة، لملكت قيـادهـا إذا أعـدت إليها بـلادهـا، وصـاروا لك عبيـداً وأطاعـوك قريبـاً وبعيداً ، وإلا جـاءك من وراء البحـار في عدد الأمـواج أفواج بعـد أفواج، وسار إليـك ملوك ذوي الاقاليـم من سائر الاقـانيم، وهؤلاء أهون منهـم فاتركهم واصفح عنهـم، فقال له السلطان: قـد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قـائمون في طاعته بالفـرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتـح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقـاء، ولم نبال باعداد الأعداء، فصلب على وجهه وركب بكربه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

فصل

في فتح صهيون وغيرها

قال القاضي ابن شداد: رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى طالباً صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مجانيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولايبلغ. وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة، وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنه النصر والفتح المبين، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر، وكان نصبه قبالة جهة قريبة من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعدَ في السور من الترقي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدّم وتواترت المنجنيقات بالضرب، وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وماكان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض، واشتدّ الزحف وعظم الأمر وهجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونهب الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم

السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فسلمت القلعة و أقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون، تسلمها النواب فإنها كانت تتعلق بصهيون.

وقال العماد: كان الطر يق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وانجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ماإليه لسوى القضاء والقدر من طريق، والقلعة ذات أسوار خمسة، كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع وهي ممتنعة علينا بالركن الأمنع، والسمّو الأمتع، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونهج بهما من جانب الوادي إلى ردّ الاعادي طريقين، وكان له بفتح هذه القلعة الجد العالي، والجد المتوالي فإنه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماة، وقد استصحب الكماة الحماة، ومعه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرخيه والجانداريه والخراسانية، واستصحب الحجارين والحدّادين والنجارين، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وأنار في الفضائل واضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحصن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يوم الخميس و للجلاميد وقوع، وللسور سجود وركوع، ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي والحنايا سهام المنايا تصمي حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن، وهان بهادب فيه من الوهن، وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، وبحر الحرب في أمواجه الزاخرة، وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها، كأن الله أعماهم عنها حتى

يسلك الحتف إليهم منها، فتعلقوا في الصخور، وتسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتووا على كل مافيها من ذخائر وغلال، ودواب وأبقار، وازدحم الفرنج في القلة، وتفادوا من الخوف لا من القلة، وصاحوا الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فما امنوا على المال والنفس، حتى قرّرنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب، وسيرت إليهم النوّاب، وما استقرّ خروجهم حتى استخرج القرار وجبي الدرهم والدينار، وعم الصغار الكبار والصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندرا، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس، فأحكمه وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد قلعة الجماهيريين، ويوم الاثنين، حصن بلاطنس، وندب إلى كل حصن من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه.

قال: وبفتح صهيون حصل الأمن على اللاذقية، وقوى الأمل في فتح انطاكية، فإنه قفل محكم على بابها، وسبب قوي من أسبابها، ففتح الرتاج، ووضح المنهاج.